القِسْمُ الأول

الأثرُ الحَضَـارِىُّ فِى

مَضَامِينِ شِعْرِ عدِىّ

أولاً : السياسة والدولة.

ثانـيًا : الغزل وصورة المرأة والأثر الحضارى.

ثالـثًا : الوصف والحضارة فى شعر عدىّ.

أولاً : السياسة والدولة

أولاً

السياسة والدولة

يعالج الجزء الأول من هذا البحث قضية المضمون فى شعر عدىّ، المضمون المتأثر بالتيار الحضارى، وليس المضمون بعامة، وبعد أن فرغ البحث من توضيح وتحديد ملامح الأركان الأربعة التى تعد مُدْخلا للدراسة وهى المصطلح والبيئة والحكام والشاعر، يقرأ شعر الشاعر قراءة متأنية، يتلمس آثار التحضر فى شعره، ويتعقب ذلك التيار الحضارى الذى يبدو جليّا فى بعض مضامين شعر الشاعر، الذى عبّر عن البيئة المتحضرة التى عاش بها، وصور أنماط التقدم المادى والفكرى اللذين وضحا فى عهده على يد خلفاء آمنوا بالبناء الحضارى والارتقاء الفكرى.

ويرى البحث أن أبرز تلك الموضوعات الشعرية، التى يمكن أن يبدو فيها آثار الحضارة أربعة هى:

السياسة ونظم الدولة والفتوحات والانتصارات.

الغزل وتصوير المرأة المتحضرة سلوكيًا وجماليًا.

الوصف لآثار التقدم والبناء والعمران والتحضر.

التحضر المعنوى فى السلوكيات والقيم الإنسانية والروحية.

وربما كانت هناك بعض المضامين الأخرى التى لا تندرج تحت قائمة هذه المحاور الأربعة، وأغفلها البحث لندرتها، وعدم خطورتها، ولكونها عاجزة عن أن تشكل محورًا بارزًا وخاصًا.

ومن المؤكد أن الباحث ضد التيار أو الدارس للظاهرة النقيضة والمضادة لظاهرة التحضر وهى البداوة سوف يجد لها آثارًا فى مضامين شعر عدى وربما كان لظواهر أخرى نصيب فى شعره بيد أن هذه الدراسة ترغب ألا تحيد عن خط التحضر فى شعر الشاعر الأموى عدىّ بن الرِّقاع العاملى.

(١) السياسة:

أبرز جوانب شعر عدى، وأكثرها وضوحا وجلاءً، وأشدها تأثرًا بالتيار الحضارى، ولا غرو فالشاعر من شعراء الدولة، وصوت الخلافة المدوى، والمحب والنديم لأشهر خلفاء عصره، فقد وَظف الكلمة من أجل المبدأ والهدف، وجعل لشعره قيمة وبقاءً، وأدى من خلال شعره دور الشاعر الملتزم، واستطاع أن يؤرخ لعصره من خلال شعره، فأضفى على إبداعه صدقا فنيًا

وواقعية مُثلى، فلم يكن شعره للإمتاع الفنى والانبهار الجمالى فحسب، بل كان للإقناع الفكرى، حين يتفق ما يقوله مع ما سجله المؤرخون الراصدون للحركة السياسية والعقائدية فى عصره.

ومن الطبيعى أن منهج الشاعر يختلف عن منهج المؤرخ، رغمًا من وحدة الحقيقة، واتفاق الهدف، وقد يفوق الدور الذى يؤديه الشاعر دور المؤرخ، حين يسلك لإخفاء الجمال على الحقيقة المجردة، وحين يتبع مناهج الجمال فى الصوغ والتعبير، فيكون أكثر قبولا، وأكثر إقناعًا.

يمكن أن نتلمس آثار التحضر فى شعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى، فى كثير من آرائه، ووجهات نظره، التى عبّر عنها فى شعره، وفى التعبير عن هواه القومى، وميله السياسى، وهو يمثل اتجاهًا معينًا، ويعبر عن وجهة نظر خاصة، تؤيد سياسة المروانيين، وتجسد نظرية الأمويين، وتعبر عن رأيهم فى الحكم والخلافة، والوصية والوراثة، والانتخاب الحر، والغرض المقيد.

والتعبير السياسى الأدبى شكل من أشكال التعابير الحضارية الحديثة، والسياسة نظام، والسياسة منهج، والنظام والمنهج مظهران من مظاهر التحضر الإنسانى، بعيدا عن عشوائية التصرف، وهمجية السلوك، وقبلية المذهب، وبداوة المنطق، وطريقة تعبير الشاعر عن آرائه، وأوجه الدفاع التى يستند إليها، وحسن مخاطبة الخلفاء، وقدرته على الإقناع، كل ذلك من العوامل التى كان للتحضر أكبر الأثر فى تشكيل المضمون الفكرى فى شعر الشاعر.

والسياسة لا غنى عنها لمجتمع، وهى من الأمور المستحدثة، وإن كانت موجودة عند العرب بين القبائل وقبل الإسلام إلا أن شكلها - بالضرورة - يختلف عما صارت عليه مع وجود الدولة، ووجود القصر، ووجود المدافعين عن المبادئ، وكثرة الخصوم، وكل ذلك يتسم بسمات تقدمية وعصرية أى: حضارية، لم يعرفها العرب من قبل.

اتخذت الدولة الأموية من دمشق عاصمة لها، وظهر القصر لأول مرة، وجذب البلاط الأموى الشعراء المدّاحين إليه، يعبرون عن وجهة نظر أصحاب القصر، ويؤيدون نظريتهم، ويروّجون لها، والتف الشعراء يمدحون الخلفاء الأمويين مدحًا غير تقليدى.

ومن الشعراء الأمويين الوافدين للمدح والعطاء منهم الأخطل وجرير والفرزدق والأحوص والنابغة الشيبانى، والراعى النميرى، والشاعر الأعمى، وأبو العباس والبعيث، والسائب ابن فروخ المكى، وأعشى ربيعة، ومسكين الدارمىّ، وغيرهم.

والخلفاء عرب، يحسنون تذوق الشعر، ويعبرون عن إعجابهم به، ويكثرون العطاء، غير أن الفتن والثورات الداخلية التى أجّج نيرانها أحزاب المعارضين، أسهمت فى ازدهار الشعر السياسى.

وكان للشيعة شعراؤهم، وكان للخوارج شعراؤهم، كما كان للأمويين شعراؤهم أيضا، ويجب أن يفرّق الباحث بين شعراء العقيدة وشعراء السياسة، وإن كانت العقيدة تخدم السياسة، وكانت السياسة تقوم على مبادئ من العقيدة، والوراثة والوصية والخلافة، وتمسك الأمويون بالشعراء المدافعين عنهم، ليدافعوا عن وجهة نظرهم.

«وكما كان شعراء القبائل فى العصر الأموى، إلى جانب الجيوش المقاتلة يدافعون عنها، ويؤكدون حقها السياسى أمام شعراء الأحزاب المعارضة، نجح الأمويون فى أن يؤلفوا حولهم حزبًا سياسيًا يدافع عن نظريتهم السياسية، ويؤكد حقهم فى الخلافة أمام الأحزاب المعارضة، وهو ما يصح أن نطلق عليه «الحزب الأموى»[1].

والسياسة من أوضح مضامين شعر عدىّ تقبلاً للتحضر وتأثرًا بها، وربما كان الجانب الحضارى فى تعبير الشاعر السياسى أكثر ظهورًا منه فى مضامين شعره الأخرى كالغزل والوصف، ولم يكن الشاعر تقليديًا فى شعره السياسى: ولم يجدد فى بعض المعانى السابقة، بل كان يتابع الحركة السياسية من حوله ويرصد مظاهرها.

وكان عدىّ من المؤمنين بمبادئ الدولة، فإن نشأته فى هذا الوسط الحضارى، وفى عاصمة الدولة العربية، قد حقق له الإحساس بكيان الدولة. وهى تبنى حضارتها، وترسخ أسس بنائها وتقاليدها فامتزج هواه بهوى الدولة، وارتبط وجوده بوجود خلفائها، يمدح أحياءهم، ويمجّد أعمالهم، ويرثى أمواتهم، ويرى برأيهم، ويقول بقولهم «يدافع عن مبادئهم، ويؤيد سياستهم، ويتحمس لها، ويوظف شعره لنصرتها»[2].

والشاعر يشهر سيفه فى وجه خصوم الدولة، يسالم من سالمها ويعادى من عاداها، «وهو فى رأيه هذا لا يصدر عن رهبة، ولا ينافق عن خوف، وإنما يعبّر عن الحقيقة كما يراها، والعقيدة كما يؤمن بها، والوفاء كما فرضته عليه أخلاقه، لأنه يعتقد أن نصر الدولة هو من نصر الله الذى لم يغلب»[3].

---

(١) د. حسين عطوان – الأمويون والخلافة . ص ١٩، ص ٤٧.

(٢) ديوان عدى . ص ١١.

(٣) ديوان عدى . ص ١١.

ويكاد الشاعر أن يرتبط بالوليد فى تسجيل أعماله، فقد وجد فيه ما يدعوه إلى الإعجاب، والوليد كما جاء فى تاريخ الطبرى[1]، كان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع، وفُتح فى ولايته فتوح عظام، فتح موسى بن نصير الأندلس، وفتح قتيبة كاشغر، وفتح محمد بن القاسم الهند[2]، كما أن الوليد أول معرّب للدواوين.

ويمكن القول أن السياسة أمر قديم، وأن قضية دفاع القبيلة عن حقوقها أمر تفرضه البادية، كما تفرضه الحاضرة ، والشعر السياسى لا يعدّ بالضرورة مظهرا من مظاهر التعبير الحضارى، وقد يظن أن الحديث عن شعر عدى السياسى يتنافى وطبيعة البحث الذى يهتم بآثار التحضر فى شعر عدى، ويمكن الرد على ذلك، بأن الشاعر قد نشأ فى الحاضرة لا فى البادية، وعاش فى دمشق بجانب القصر الأموى، وتشبعت نفسه بالتقاليد الحضارية، التى حملته «مهمة الإحسان فى مخاطبة الخلفاء، وإجادته اختيار الألفاظ المناسبة، وانتقائه جمالية الصور، والتعبير عن الوجهة السياسية التى كانت تأخذ طريقها فى بناء الدولة العربية، والالتزام بالمبادئ الإنسانية التى أصبحت واجهة من واجهات الدولة فى التعبير والتحرير والتعامل وما يمكن أن يقدمه الخليفة أو يضطلع به من جلائل الأعمال وعظائم المسئوليات»[3].

وللخلفاء الأمويين طابع خاص فى حكمهم فى ولاية العهد، وفى الوراثة، وروّج الشعراء لهذا، بينما عارضه الآخرون، وأعطى هذا كله لطبيعة الصراع السياسى لونا جديدًا.

وكان عدى مقدمًا عند بنى أمية، مفضلاً لديهم، مختصًا بالوليد بن عبد الملك، ويكاد ينقطع له، ولا غرو إذا أطلق على الشاعر عدى شاعر سياسى من الطراز الأول.

فقد أسهم بشعره فى الدفاع عن الحزب الأموى، وخاض فى قضايا سياسية عديدة، ودعا إلى عصبية ما، وامتدح القائمين بالأمر، وفاخر بقومه.

«والموافقون للخلفاء يلقون منهم أبدًا معاضدة ورفدا، والشعراء أدوات دعاية للعظماء والزعماء، والشعراء الذين اشتهروا فى عهد معاوية وعبد الملك هم الذين تطوّعوا فى إبداء محامد الأمويين والمروانيين ونالوا من خصومهم»[4].

وكان دفاع عدىّ عن النظرية السياسية الأموية ينطلق من إيمانه بمبادئها، ولا يدفعه لذلك دوافع مادية بحتة، شأن غيره من الشعراء وقد وجد عدى فى الوليد الحاكم الذى تتجسد فى

---

(١) الطبرى – تاريخ الطبرى . ٤٩٧/٦.

(٢) الطبرى – تاريخ الطبرى . ٤٩٦/٦.

(٣) ديوان عدى . ص ١٦.

(٤) النظم السياسية – د. ضحى الصالح . ص ٢٦.

مسيرته آمال أمته العربية، وتتحقق بأعماله أحلام العرب السياسية، وقد وجد الوليد فى عـدىّ الشاعر الذى يتغنى بأعماله، ويسجّل مآثره، ويخلّد فضائله، وما أحـوج الحـاكم إلى شـاعر مـن هذا الطراز.

ومن أبرز المضامين السياسية الحضارية فى شعر عدىّ، الدعوة إلى القومية العربية، والتعصب لها، وتحدى الخـارجين عليـها، والإشـادة بالقـائمين علـى أمورهـا، وكذلـك الاهتمـام بـالنظرة الواقعية، وتسجيل أحداث التاريخ الحى، وتصوير أحداثه فى شـعر الشـاعر مـن واقـع معـارك المروانيين مع العدو خارج الدولة ومع الطامعين فى غزو العرب، كذلك المعارك مع أعداء الدولـة الداخليين الراغبين فى إثارة الفتن، والإطاحة بمن يعتلى كرسى الحكـم، ليحلـوا محلـه، نظـرًا لاختلاف العقائد والمذاهب، ورغبة كل حزب فى أن يشغل حكم الأمة.

واشتمل شعر عدى السياسى فى مضامينـه الحضاريـة علـى الإلحـاح علـى صـوت العروبـة، وتأكيده وتجسيمه، وإرساء أصوله مـن واقـع التفـاخر بالحسـب والأنسـاب والأصـول، التـى لم تدنس بأية عناصر أجنبية أخرى، ولم تمزج بدماء غير عربية، فجسـد صـورة قريـش، وجعلـها من أزهى صور القبائل التى يفخر العربى بالانتماء إليها.

ولم تخل أشعار عدىّ السياسية من التأكيد على التيار الإسلامى الذى يُعدّ عنصرًا بـارزًا فـى مدح الشاعر للقائمين على أمور الدولة، حتى امتزجت الخيوط الإسلامية بالخيوط السياسية فـى صياغة فنية محكمة.

ومن سمات الشعر السياسـى المتحضـر أو المتـأثر بالحضـارة فـى شـعر عـدىّ حسـن مخاطبـة الخلفاء، وطريقة التخاطب معهم فى أسلوب محبب لديهم، عبّر عنه الشاعر فى قدرة وأصالـة، تدلاّن على معرفة دقيقة بقسمات الحاكم النفسية، ومعرفـة عـدى بطرائـق التعبـير التـى تقـرب الشاعر لديهم، وتجعله شاعرهم المفضل، حتى فضلوه على جرير.

ويقول الوليد عن عدىّ: إنه شاعرنا ومادحنا والراثى لأمواتنا.

والنصوص عديدة بالديوان، تؤكد تلك السمات الفنية البارزة، التى رصدها البحـث، سمـات التحضر السياسى، أو السمات الحضارية للشعر السياسى فى قول عدىّ، ويمكن أن نذكر بعـض هذه النصوص فى هذا المجال؛ وهى أبيات من قصيدة من قصائد عدىّ، التى مدح فيها الخليفة الوليد بن عبد الملك، والقارئ للأبيات يلحـظ بعـض هـذه السمات الحضاريـة فـى شـعر عـدىّ السياسى، وانتقاء الألفاظ، التى تليق بمكانة الخليفة لدى الشاعر، وقد تخطى الشاعر بالأبيـات ما يعرف بالمدح عند الشعراء، والتغنى بفضائل الممـدوح مـن أجـل المـال والعطـاء، إلى أن يكـون شاعرا مؤرخا متحملا للمسئولية، ملتزمًا، يسجل أهم ما يراه فى عصره على يد خليفته.

يقول عدىّ[1] فى الوليد وأعماله من قصيدة طويلة:

مِن خَلْقِهِ فهو يكسوهُمْ ويَرْزُقُهُم ... يومًا ويومًا ولَنْ يَسْأَلْنَ أثمانا

لهنّ ربٌّ حَفِيٌّ لا يضيعُ ولا ... يَخْفَى عليه خَفِيٌّ حيثُ ما كانا

ذو قُدْرَةٍ ليسَ طولُ الدهرِ زائِدَهُ ... منْهُنَّ بُعْدًا ولا عَنْهُنَّ غفلانا

إنَّ الوليدَ أميرَ المؤمنينَ قَضَى ... أمْرًا يُبَلِّغُهُ الأدْنَوْنَ أقصانا

قَضِيَّةً عَصَمَ اللّهُ العبادَ بها ... فأصبحوا فى كتابِ اللّهِ إخوانا

بَعْدَ الشقاقِ وأضغانٍ مبيّنَةٍ ... ومِيتةٍ كانَ فيها حِينُ مَنْ حانا

فأصْبَحَ الأمرُ بعدَ اللهِ قادَتُهُ ... بنو الأَلَى غَضِبُوا مِنْ قَتْلِ عُثمانا

الآمِرونَ بتقوى اللّهِ أمَّتَهُم ... والكائنونَ على المعروفِ أعوانا

والقائلونَ أتَيْنا كُلَّ مَكْرُمَةٍ ... قُدّامَنا فَحَصُوا عنها لأخْرانا

لولا الإلهُ وأهْلُ الأردن اقتسمت ... نارُ الجماعةِ يومَ المرجِ نِيرانا

كانوا زُوارًا لأهل الشامِ قَدْ عَلِمُوا ... لَمَّا رَأَوْا فيهم جَوْرًا وأضْغانا

غداةَ يَدعونَ والأبصارُ خاشعةٌ ... يا رَبَّنا وَلِيَنَ الأمرَ أتقانا

فبيَّضَ اللّهُ يومَ المرجِ أوجُهَهُمْ ... بنَصْرِهِ وبسيفِ اللّه مَرْوانا

وبابنِهِ بَعْدَهُ عبد المليكِ فَقَدْ ... زادوا ذوى عَقْلنا شُكْرًا وإيمانا

ثم اصْطَفَى اللّهُ للإسلامِ بَعْدَهُما ... من أهلِ بَيْتِهما نُورًا وبُرهانا

رأى الوليدُ لها أهلاً فَمَلَّكَهُ ... واختارَ منا الذى يَرْضى وأرضانا

فالحمدُ للّهِ إذْ وَلّى خِلافَتَنا ... وأمْرَنا خَيْرَنا دِينًا وأقْوانا

مُرَّ العداوةِ يَشْقَى الكاشحونَ بهِ ... حُلْوًا إذا لم تَرِبْهُ ريبةٌ لانا

نَحْنُ الرَّعِيَّةُ والرحمنُ يَحْفَظُنا ... وأنْتَ فى الأرضِ بَعْدَ اللّهِ تَرْعانا

بنى مساجدَ للإسلام جامعةً ... ولم يَدَع بَيْتَ إشراكٍ كما كانا

بَنَوا قَنَاطِرَهُ حتى إذا جعلوا ... له من الجَنْدَلِ العادِىّ أركانا

نُعْمَى مِن اللّهِ زادَ المسلمينَ بها ... تُقىً وكانَتْ بحمدِ اللّهِ عِرفانا

---

(١) ديوان عدى . ص ١٦٨، ص ١٧٤ – المقطوعة رقم ١٦.

الأبيات واضحة، والمعانى فى غير حاجة إلى شرح أو تفصيل، وصورة الحاكم واضحة، والخط السياسى بارز، والاتجاه الحضارى يمكن رصد مظاهره، وفضل الخليفة على الرعية فهو امتداد للخالق، ويتصف بالتقوى والتمسك بالإسلام، ودوره التاريخى معروف، فى جمع شمل الأمة، والعمل على وحدتها، ومحاربة الفرقة والوقوف فى وجه دعاة التمزق والتشريد.

ويذكر الشاعر فى الأبيات بعض المواقف التاريخية التى يتفق الشعر فيها مع ما سجلته مصادر التاريخ الإسلامى، ويشير إلى يوم الجماعة، وإلى موقعة المرج، وإلى دور خلفاء بنى أمية، وما فعله مروان وعبد الملك والوليد، والأبيات فى حاجة إلى دراسة تحليلية أعمق وأكثر تفصيلاً ولا يتفق ذلك مع طبيعة البحث الذى يرصد الظاهرة أكثر من اهتمامه بتحليل النصوص.

ومن الطبيعى أن يعجب الوليد بشعر عدى، ويفضله على غيره من الشعراء، والخلفاء فى رأيهم الأدبى لا ينافقون، وإنما يصدر الرأى عن حب للشعر، وملكة نقدية يحترم رأيها، ولا ميل فيها أو هوى، فالشعراء محبون للشعر، وبعضهم كان يقرضه، وهم من أبرز العوامل المؤدية إلى أن يهتم القائلون بما يقولون، وفى حكاية جاء ذكرها مفصلاً فى ثمار القلوب للثعالبى النيسابورى[1] «يفضل الوليد عديًّا على جرير، ويأمر له بضعف ما أمر لجرير، وكان عدىّ أول من شبّه الزوجين، بالشمس والقمر، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا».

قمر السماء وشمسها اجتمعا　　بالسعد ما غابا وما طلعا[2]

ومن مضامين شعر عدى السياسى، تسجيل الانتصارات والفتوحات فى الخارج وفى الداخل، ويشير عدىّ إلى مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق لحرب مصعب بن الزبير سنة إحدى وسبعين فيقول:

لعمرى لقد أصحرت خيلنا　　بأكناف دجلة للمصعب[3]

وفى قصيدة أخرى، يذكر عدىّ يوم المرج، وقد نظمها فى الوليد، وجاء فيها:

فبيّض الله يوم المرج أوجُهَهم　　بنصرِه وبسيف الله مروانا[4]

والجديد فى دور عدىّ قيامه بمهام رجل الإعلام، الذى يسجل المآثر والانتصارات بعين بصيرة، تلاحق الممدوح، وتتابع أخبار دولته، بقلب محب وعقل مقتنع بفكر ممدوحه.

---

(١) الثعالبى النيسابورى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر – ١٩٨٥. ص ١١٢

(٢) ديوان عدى: ص ٢٥٧، ذيل الديوان

(٣) ديوان عدى: ص ٢٣٢.

(٤) ديوان عدى: ص ١٧١.

والجديد فى شعر عدىّ السياسى خلط التيار السياسى بالتيار الدينى الذى يؤكد معنى النصر.

والجديد أيضا ظهور صورة الجيش المنظم والحرب المعدة المدروسة خططها، فلم تكن حروبًا قبلية، فى شكل غزوات متفاوتة، وإنما امتاز بالنظام والتريث والإعداد ودراسة الخطط، والتأثر بالحضارات الأخرى، وبأنظمتها القتالية، وهذا كله يظهر جانب التحضر فى تصوير عدىّ لانتصارات الوليد.

ويشير صاحب - الشعراء الشاميون - إلى هذه الظاهرة فى شعر عدىّ فيقول[1]:

وهناك أبيات يلم فيها عدىّ بالأحداث السياسية التى جرت فى الشام، كوقعة مرج راهط، التى دارت بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين، وما كان من بلاء أهل الأردن مع مروان حتى قتل الضحاك.

لولا الإله وأهل الأردن اقتسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانا[2].

وكذلك انتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانه، فقال عدىّ:

وكان أمرك فى أهل الطوانه من نصر الذى فوقنا والله أعطانا[3].

وكذلك انتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير.

والمظهر الثانى الذى يظهر فيه التجديد فى شعر عدىّ، كان نتيجة تأثره بالمذاهب العقائدية، حتى أضحى امتزاج الخط السياسى بالصوت المذهبى، من أبرز مواطن التجديد فى تعبير عدىّ السياسى، فقد دخلت قصيدة المدح الأموية عناصر أخرى مذهبية تدور حول النظرية السياسية التى يدعو لها بنو أمية، ويروجون لمبادئها، والتى تقوم على أنهم أحق الناس بالخلافة، وأن الله اختارهم لحكم جماعة المسلمين، ولولا ذلك ما نصرهم على خصومهم السياسيين.

ولم يكن تأثر عدىّ بالمذاهب والعقائد فى عصره اقتناعًا بأفكارها، وإيمانًا بمبادئها، ولكنه إعجاب بموضوعاتها وبصورها الفنية، التى أتى بها شعراء العقيدة، فأضحى عدىّ يتعامل مع الوليد معاملة أقرب من معاملة الشيعة الغلاة للوصاة والولاة. ولم يكن عدىّ من شعراء الشيعة أو من شعراء الخوارج، ولكنه من الشعراء الأمويين، أو بمعنى آخر هناك شعراء العقيدة والفرق الإسلامية، وشعراء السياسة.

---

(١) خليل مردم - الشعراء الشاميون . ص ٣٢، ص ٣٣.

(٢) ديوان عدى: ص ١٧٠

(٣) ديوان عدى: ص ١٧٤

وهذا الغلو الذى يبدو فى مدح عـدىّ للمروانيـين مـن الخلفـاء الذيـن عـاصرهم، لم يكـن فـى الوليد - فقط - بل كان فى غيره، من الخلفاء، ومنهم عمر بن عبد العزيز الذى قـال عـدىّ فـى مدحه:

مدحت أمير المؤمنين الذى اصطفى لنا ربنـا فضـلاً على كـل مسـلم[1]

فالخليفة عند عدىّ، لا يفضله أحد من البشـر، غـير النبـى المصطفـى عليـه السـلام، حتـى الخلفاء الراشدون يأتون بعده فى المرتبة، ويخلع عدىّ بعض الصفات التى تتسـم بـالغلوّ متـأثرا بشعر الشيعة، فى مدح الوليد بن عبد الملك:

رضى الله عنهم واصطفاهم وله من عبـــاده أصفياءُ[2]

ويجعل عدىّ الوليد راعيًا مكلفًا من الله سبحانه وتعالى، وطاعة الوليـد طاعـة الله، وعصيـان الوليـد عصيـان الله، والوليـد غيـث مرسـل بـأمر الله للمسـلمين، ليحـى الأرض بعـد موتـها، ويعمرها، فى قوله:

نحـن الرعيـة والرحـمن يحفظنـا وأنت فى الأرض بعد الله ترعانـا

فأنت غيـث بـإذن الله أرســـله للمسلمين حيا والأرض عمرانـا[3]

ويرى صاحب «الأمويين والخلافة» أن شعراء الشيعة لا ينفردون بالغلو فى مدح أئمتهم، بـل يشركهم فى ذلك أكثر شعراء العصر الأموى[4].

ويشير عدىّ إلى قضية توريث الأمويين الخلافـة فيمـا بينـهم، وهـذه الخلافـة أمـر مـن الله، وطاعة الجند للخليفة بأمر الله، وتولى الوليد الخلافة بعد أبيه عبد الملك قضاء مـن الله، وقضـاء الله نافذ مفعول، وهذه كلها معان تتسم بـالغلو، وتقـترب فـى أفكارهـا مـن مدائـح الشـيعة فـى ولاتهم وفى الوصاة والأئمة.

ومن ذلك قول عدىّ:

وقضـــى لك الخـــلافة بعـده وقضـاء ربك نافـذ ومفعـول[5].

ويحلو لعدىّ أن يخاطب الوليد بأمير المؤمنين، مشيرًا إلى اختيار الله الوليد خليفة، فـهو أتم الناس وأعظمهم، فيقول:

مدحـت أمـير المؤمنين الـذى دعـوا إليه وخير الناس عن دينهم دَفعًا[6]

---

(١) ديوان عدى: ص ١٢٩.

(٢) ديوان عدى: ص ١٥٩.

(٣) ديوان عدى: ص ١٧٢.

(٤) الأمويون والخلافة / ٢٤.

(٥) ديوان عدى: ص ٢٠٨.

(٦) ديوان عدى: ص ٢٢٣.

ويبالغ عديّ فى مدح الوليد مبالغة مُفرطة، ويضع حوله هالة من القداسة، فجعل الإله يصلى عليه، كما صلى على الأنبياء، وإن كان شعر عديّ جميل الصوغ، رقيق الأسلوب، فإن صور المبالغة فيه مقيتة، حين يجعل الشاعر المؤمنين يصلون على ممدوحه، كما يصلون على النبى، فهو الذى جمع الرحمن أمته على يديه بعد أن كانوا متفرقين، ويرى د. الشكعة أن «هذا غلو غير مقبول، يدل على عصبية حزبية، باركها الخليفة، ولم يعترض عليها الأنصار»[1].

ويظهر هذا الغلو فى قول عديّ:

صلىّ الذى الصلوات الطيبات له والمسلمون إذا ما أجمعوا الجمعا[2]

ويستمع ابن سُريج - أشهر المغنين فى عصر عديّ، إلى أبيات عديّ فيغنيها، وكان الشعراء والمغنون فى معركة حزبية، وهى معركة سياسية حقيقية، حين حارب الشعراء الأمويون بنفس السلاح الذى استعمله شعراء الشيعة.

ويقول عديّ فى المعنى ذاته:

صلى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها[3]

والمعروف أن لقب «أمير المؤمنين»، أطلق أول الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب، ثم أطلق بعد ذلك على سائر الخلفاء والراشدين، وكان الخوارج يسمون كل زعيم من زعمائهم أمير المؤمنين، والصحيح أن هذا اللقب ليس من ألقاب الشيعة الخاصة، بل هو من الألقاب السياسية العامة، وكان الشيعة يطلقون على كل رئيس من رؤسائهم من أهل البيت اسم الإمام.

ومدائح عديّ فى الوليد مشبّعة بالوجدان السياسى، حتى صار مدحه فى الوليد وثيقة سياسية تاريخية رسمية، فيصور شعر عديّ البلاط السياسى الذى يتضمن جانب الشعر السياسى لهؤلاء الذين مُكّن لهم من الحكم وظفروا بالسلطان.

الظاهرة الثالثة: فى شعر عديّ السياسى المتأثر بروح التحضر هى ظهور التيار الإسلامى فى مدائح عدى السياسية، ومما لا شك فيه فإن تأثر عديّ بالإسلام يعد أثرًا من آثار التحضر الفكرى.

فقد قامت سياسة المروانيين على الالتحام بين الروح العربية والتعاليم الإسلامية، وهو التحام بدأ يظهر منذ عهد عبد الملك بن مروان، الذى ولد بالمدينة، وتشبّع بروح الإسلام، واعتبر من

---

(١) د. مصطفى الشكعة - الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية - كتاب الشعر - دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٧٤ . ص ٩.

(٢) ديوان عدى: ص ٢١٩.

(٣) ديوان عدى: ص ٩١.

علماء القرآن، وعمل ابنه الوليد على تقوية أواصر الإسلام، وكان للإسلام فى قلبه محبة عميقة، وكان سليمان يميل إلى أهل الديانة، وعمر بن عبد العزيز يعد رأس هذه القائمة «حتى ازدوجت الروح العربية والروح الإسلامية فى شخصيات الخلفاء المروانيين ازدواجًا وثيقًا».

والحضارة الإسلامية من أزهى الحضارات، وأكثرها أصالة وثراءً، والإسلام أساس التحضر العربى والفكرى، وقد أسهم الخلفاء المروانيون فى تأصيل الشرائع فى الدعوة إليها، وفى رعاية أمور المسلمين.

لقد أسهمت الفتوحات فى ازدهار شعر الفتوحات الإسلامية، كما يعد اهتمام الوليد ببناء المساجد وتعميرها، من مظاهر التحضر، وهذا التيار الإسلامى قد تشبَّعت به أفكار عدىّ وغيره من الشعراء المسلمين، وأصبح شعر عدىّ يزخر بمواكبة الفكر الإسلامى فى كثير من مضامينه وصوره، وظل شعره «يساير التطور ويواكب أحداث المجتمع، ويلبى أحداث الزمان، ويهتم بشئون البيئة الجديدة المتطورة المتغيرة».

حمل شعر عدىّ السياسى دعوة إسلامية، ولكنها دعوة متشبعة بالاتجاه السياسى، الذى يمثله ويدعو له، والذى يستند على نظرية الخلافة القائمة على ولاية العهد، فيجعل الشاعر الاختيار إرادة إلهية، ووصاية ربّانية.

وقد أفاد الأمويون من الحضارات الأخرى، حتى امتزجت بحضارة الإسلام، فصارت حضارة عربية، تأخذ من الحضارات القديمة، وتأخذ من مبادئ الإسلام، وهذا اللون من الحضارة الممتزجة هو الذى كان يدعو إليه الشعراء، لأنه يترجم عن سياسة الخلفاء الأمويين، ولما كان الأمويون لم يطبقوا مبادئ الشريعة الإسلامية، فيما يخص النظام الإدارى والاقتصادى، فقد استفادوا من النظم القديمة السائدة فى تلك البلدان، ونتج عن ذلك بواكير حضارة عالمية كان المسلمون روادًا لها.

ويظهر تأثر الشاعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى بالحضارة الإسلامية فى مدائحه وأهاجيه، والمدائح عند عدىّ أكثر من الأهاجى، وفى هذا تأثير حضارى، والإسلام أجبر الشعراء على التغنى بفضائل دينية أضحت أكثر فعالية وتأثيرا ورواجا مما تعود عليه الشعراء التقليديون فى مدائحهم، كما أن الإسلام نقّى الأهاجى من السباب وأقذع الألفاظ وأحط المعانى، وصار الهجاء بالظلم أو التقصير فى أداء فروض الله وغيرها.

ومن الطبيعى أن يكون المديح بالفضائل الإسلامية سياسة حضارية، أو تحضر سياسى، أو اتجاه سياسى متأثر بالحضارة الإسلامية، ودور الشاعر مع الخلفاء الأمويين، يمدحهم ويشيد

بأعمالهم، وقد كان المدح بالقيم الإسلامية مدحًا سياسيًا، يؤيد أركان الدولة، ويدعو لسياسة حكامها، ويناصر المذهب الشائع.

«والأخطل النصرانى لم ينجُ من هذا التأثير الإسلامى، ولم يرفض هذه الخيوط الإسلامية التى نراها منتشرة فى نسيجه الفنى بصورة واسعة، وكأنه يريد أن يؤكد لممدوحيه من الخلفاء والأمراء أنه لا يقل تأثرًا بالإسلام وفهما لمثله وقيمه وتعاليمه من الشعراء المسلمين»[1].

ومن مدائح الأخطل النصرانى لعبد الملك بن مروان قوله متأثرًا بالإسلام:

أحيا الإله لنا الإمام فإنه　　خير البريّة، للذنوب غفور

والفرزدق - رغمًا - من بداوته، واستهتاره بالقيم الإسلامية - أحيانًا - يمدح يزيد بن عبد الملك ويقول:

ولو كان بعد المصطفى من عباده　　نبى لهم منهم لأمر العزائمِ
لكنت الذى يختاره الله بعده　　لحمل الأمانات الثقال العظائمِ

وجرير يمدح عبد الملك بن مروان، متأثرا بالإسلام، فيقول:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه　　ما قام للناس أحكام ولا جمع

وأصبح من غير الممكن أن ينظم الشعراء الأمويون مدائح، لا يظهر فيها التيار الإسلامى، وقد زاد ذلك التيار فى الشعر الأموى لقرب العهد بالمسلمين الأول، حتى فى الهجاء، وإن كان جاهليا فى روحه، لكن الإسلام وجهّه وضمنه قيما جديدة، فأصبحوا يهجون بمعان منافية للقيم الإسلامية، وكذلك الرثاء جاء فيه قيم تعين على الصبر، والرضاء بالقضاء والقدر، حتى الغزل صار عذريًا طاهرًا عفيفًا، يتغنى بالعفة والوفاء، ويتضمن ألفاظًا قرآنية، مثل الذنب والظلم والغفران والتوبة»[2].

يمدح عدىّ الوليد بالتقى والعدل، وإنصاف المظلومين وإحياء سنة الله ورسوله، والانتصار للحق والوفاء، والمساواة بين الرعية، وكلها معان تتفق وروح الإسلام، وتعد من آثار التحضر الفكرى الإسلامى، ويظهر ذلك فى قول عدىّ فى الوليد:

جَعَلَ الأمرَ فى ذوى الرأى منهم　　إنَّ خَيْرَ البَرِيّةِ الأتقياءُ
قوّم المسلمين حتى استقامتْ　　سُنَّةُ الحَقِّ فيهمُ والوفاءُ
والموازينَ بعدَ بخْسٍ فَجازَتْ　　سِلَعُ الناسِ بَيْنَهمُ والهِداءُ
فإذا العبدُ ذو العباية يُعطى　　حَقَّهُ والوليدة البلهاءُ[3]

---

(١) د. يوسف خليف - تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى - دار الثقافة - القاهرة - ١٩٧٦ ص ٢٦٥.
(٢) د. يوسف خليف - تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى - دار الثقافة - القاهرة - ١٩٧٦ - ص ١٦٦.
(٣) ديوان عدىّ : ص ٥٣

ويصور عدىّ عمر بن عبد العزيز ، نقى الأثواب ، طيب العرض، طاهر الطرف، شديدًا على الظالمين، ويصوره ثابت القول، سديد الرأى، عندما يعتلى منبر الوادى المقدس، وهو أمرؤ بعيد عن الفاحشة، لا تختلط به فى لحم أو فى دم، فيقول فيه[1]:

إذا شِئتَ أن تلْقى فَتَى البأسِ والنَّدَى ... وذا الحَسَبِ الرابى التليدِ المقدمِ
فكُن عُمَرًا[2] تأتى ولا تَعْدوَنَّهُ ... إلى غيره واسْتَخْبِرِ الناس وافْهَمِ
فَتَى حُجِبَتْ عنه الفواحشُ كُلها ... فما اختلطت منه بلَحْمٍ ولا دَمِ
غدا طيِّبَ الأثوابِ[2] ينفح عِرْضُهُ ... مُبينًا لعين الناظرِ المُتَوَسِّمِ[2]
شديدًا على ذى الضِّغْنِ حينَ يريبُهُ ... دَفوعًا عن المُسْتَضْعَفِ المُتَهَضَّمِ[2]
على منبرِ الوادى المقدس[2] كُلِّه ... يروحُ بقولٍ ثابتِ المُتَكَلِّمِ
ثلاثةُ آباءٍ لهُ كلُّهمُ بنى ... تمامًا ومُلكًا ثمَّ لم يَتَصَرَّمِ
ملوكٌ يَرَوْنَ العَدْلَ حقًّا عليهم ... حسانُ الوجوهِ يهتدى بهم العَمِى
فكانوا لنا نورًا بإذن الذى لهُ ... علينا أيادٍ من فُضُولٍ وأنْعُمَ
رزَونا فوَلوا أمْرنا أتقياءنا ... وما علمنا أننَّا لم نُعْلَمِ
وهذا ثنائى صادقًا غير كاذبٍ ... عليهم ومن لم يقضى بالحقد يَنْدَمِ[3]

القصيدة طويلة، وهى كاملة فى ديوان عدىّ، وكلها معان إسلامية، تدعو إلى القيم الأخلاقية، التى فصّلها عدىّ تفصيلاً، بدأها بالبر ثم الإنعام ثم الشدة على الظالمين، فالتقوى، ثم الإنصاف واصطفاء الله واختياره خليفة للمسلمين، وسبقه المكارم دون البشر، وسمو مكانته لشرفه وعظمته، وتحليه بالحلم، والكرم فى العطاء.

والاتجاه الحضارى يبدو فى مدح عدىّ للوليد وَعَمَر بالمعانى الإسلامية، فلم يكن مدحه ذلك المدح التقليدى، الذى التزم به شعراء الجاهلية، بل طغت المعانى الإسلامية على مدائحه،

---

(١) د. مجاهد مصطفى بهجت – التيار الإسلامى فى شعر العصر العباسى الأول – وزارة الأوقاف – العراق – الطبعة الأولى – ١٩٨٢ : ص٣٥، ص٣٦.

(٢) مفردات الأبيات: ؛ كن عمرا: يعنى عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص. وأم عمر أم عاصم ابن عمر بن الخطاب ﷺ . طيب الأثواب: نقى العرض، برىء من الدنس والعيوب . المتوسم: المتفرس. المتهضم: المنقوص من حقه، المستذل. المقدس: المبارك والمتكلم. أيديت إليه يدًا: أى، صنعت معه معروفًا.

(٣) ديوان عدى . ص ١٦٠ – القصيدة رقم ١٣.
والهداء: أى تهادى النساء والصبيان جاءت كل واحدة بطعام واجتمعن عليه فهو الهداء، والهداء.
الزّفاف . يقال عباية وعباءة، والبلهاء : القليلة العقل.

والمعانى الإسلامية فى مدائح عدىّ تدور فى إطار سياسى، قد التزم الشاعر به، مدافعًا عن حقوق الخلفاء فى الحكم، مادحًا إياهم تمسكهم بالإسلام، فهى مدائح سياسية، تبتعد عن شكل المدائح التقليدية، وقد ولدوا فى المعانى الإسلامية، وبالغوا فيها، وأضافوا إليها معايير جديدة.

وبدا فى بعض مدائح عدىّ مزجٌ بين المعانى الجاهلية والمعانى الإسلامية، فقد اختار من المعانى الجاهلية ما لا يتعارض مع المبادئ الإسلامية، مثل الكرم والشجاعة، وغيرهما من الصفات الأخلاقية، وليس أدل على كون التأثر بالإسلام كان لخدمة القضية السياسية، من كون الأخطل النصرانى يمدح بالمعانى الإسلامية.

وكان عدىّ يأتى بما يليق بأوصاف ممدوحه، حتى يكون كما قال حازم القرطاجنىّ، «يسمو بطبقة ممدوحه إلى ما يجب لها من الأوصاف، وإعطاء كل حقه من ذلك»[1].

ولم يمدح عدىّ غير الخلفاء الذين عاصرهم، ولم ينزل بمدائحه إلى الشعب أو الولاة، مما يوضح أن العطاء لم يكن هدفه الأول فى مدائحه السياسية، ولكنه كان مؤمنًا بقضيةالأمويين، مؤكدًا دورهم.

يبقى بعد ذلك جانب آخر من جوانب تحضّر الشعر السياسى عند عدىّ ألا وهو «حسن مخاطبة الخلفاء»، والقدرة على إقناعهم، وجذب اهتمامهم إلى قوله، حتى يفضلونه على غيره من الشعراء، ويقربونه إليهم.

وحسن المخاطبة أثر من آثار التحضرّ، وأمارة من أمارات الذوق، وتلك موهبة لا تتأتى إلا لمن يحسنون التصرف، ويجيدون لباقة الحديث، متأثرين بروح التحضر والتمدين.

وكان عدىّ يخاطب الخلفاء مخاطبة تليق بذواتهم، ويمدحهم بمعان حضارية تدل على الارتقاء والسمو، وفيها بعد عن الخشونة والفظاظة.

ويرى خليل مردم أن حُسن تأتى عدىّ فى مدحه لبنى أمية، خلفائهم وأمرائهم، أدلّ على لباقته وتحضرّه، فهو شاعر مُجيد من شعراء القصور، يحسن القيام برسوم الخلفاء والأمراء فى مخاطبتهم على الوجه الأكمل، ويمدحهم بما هو أشبه بالدعوة السياسية، ويضفى عليهم رداء الجلال والعظمة، واسمعه يقول فى مدح الوليد بن عبد الملك:

صلى الإلـــه على امـــرئ ودعته وأتـــم نعمتـــه عليـــه وزادهـــا

---

(١) ديوان عدى: ص ١٣٤، ص ١٣٥، القصيدة رقم ١٠.

فهل ترى نمطًا أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط ؟!

ونشأة عديّ في حاضرة الشام لا في باديتها، وتشبّع روحه بروح التحضرّ أكسبه ذلك كله القدرة على الإحسان في مخاطبة الخلفاء، ويعلل ذلك صاحبا ديوان عديّ بطبيعة الحياة ورفاهية واقعها الجديد، والتمسك بالتقاليد الحضرية، ولابد أن يكون هذا الاتجاه قد حمّل الشاعر مهمة الإحسان في مخاطبة الخلفاء، وإجادته في اختيار الألفاظ المقبولة والمناسبة، وانتقائه جمالية الصور.

والمقارنة لمخاطبة عديّ للخلفاء، ومخاطبة جرير والفرزدق والأخطل، يبدو تحضر عديّ ولباقته في معظم مخاطبته للخلفاء، وذلك الاختلاف بين الأسلوبين في مخاطبة الخلفاء، إنما يعود لبداوة جرير وبعده عن التحضر وعن حياة الحضر، وتحضر عديّ وحياته في دمشق.

وتحضر عديّ في مخاطبة الخلفاء يظهر في قوله للوليد:

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ضنًّا به نَظَرى إلى الأمْراءِ

تسمو العيون إليه حينَ يَروّنه كاليَدْر فرَّجَ بهمة الظَّلماء

وقد جعلت بعض المصادر الكتابة الفنية تذييل قول عديّ لأميره رسما من الرسوم التي يجب على الكتّاب الالتزام بها، مما يؤكد ذيوع قول عديّ وشهرته في مقدرته على حسن مخاطبة الخلفاء، فقد ذهب قوله مثلاً حين قال:

صلى الإله على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

يقول أبو هلال العسكرى في ديوانه المعانى في فصل دعاء المكاتبة: «فأما قولهم وأتم نعمته عليه وزاد إحسانه إليه فمن قول عديّ بن الرّقاع . . صلى الإله..

إن عديًا كان من دعاة سياسة الأمويين لا من الشعراء الذين يبيعون الشعر بيعًا.

ورابع هذه المظاهر التي تدل على تحضرّ عديّ في شعره السياسي هو دعوته إلى القومية العربية، وتعصبه للعروبة، فقد مدح الخلفاء بنقاء الجنس، والبعد عما يعكر صفو الدم العربى، أو يشوبه بشائبة.

وهذه الدعوة العربية كانت قوية في العصر الأموى، فلم يكن للعجم سطوتهم التي قويت في العصر العباسى، حين سيطر الفرس والأتراك، واحتلوا القيادات، وتزوج الخلفاء بأعجميات، أنجبن لهم معظم خلفاء بنى العباس.

وقد يقال إن هذا الأمر لا صلة له بالتحضر، وأنه من آثار التبدىّ، ولكن البداوة تدعو إلى الإقليمية أوالقبلية والحزبية، والتحضر يدعو إلى الالتفاف حول العروبة والإسلام والدعوة إليهما.

وتفاخر الشاعر بقريش تفاخر جمعى لا فردى، فهى رمز للعروبة الخالصة، وهى جنس الإسلام وأصل المسلمين، منها الرسول الكريم ﷺ وصحابته والتابعين.

وقد التزم عدىّ فى تعبيره عن الوجهة السياسية التى كانت تأخذ طريقها فى بناء الدولة العربية بالمبادئ الإنسانية التى أصبحت واجهة من واجهات الدولة فى التعريب والتحرير، وما يمكن أن يقوم به الخليفة أو يضطلع به من جلائل الأعمال وعظائم المسئوليات[1].

وقد التزم المروانيون بتعريب الدولة، فى الدواوين والعملة والكتابة، ويفخر عدىّ بقريش، فيقول:

غلب المسامیح الولید سماحة وكفى قريشًا ما ينوب وسادها[2]

وفى مدحه لعمر بن الوليد يفخر بنسبه القرشى، بل يجعله أفضل من ينتسب إلى قريش، فيقول:

أَلَسْتَ إذا نُسِبْتَ فتى قُرَيْش وأكرمها وأفْضَلَها رجالا[3]
وقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أنَّ فيكُمْ سيوفًا حين يحتضِرُ القِتَالا
أبا حفْص جزاكَ اللهُ خيْرًا إذا ما المعْتَزَى كردَ السُّؤالا
جوادٌ ليسَ قالاً حِينَ يُسْئَلُ لطالبِ حاجةٍ أبدًا ألا لا
تفِيضُ يمينُهُ بالخيرِ فيْضًا ولا يلقى بنائِلِهِ الشمالا
وماذا الموجُ يطرحُ ساحِلَهُ بغَوَّاصِيهِ طَرْحًا حين سالا
بأجودَ من أبى حَفْصٍ إذا ما أتَتْهُ العِيسُ تَخْتَرِقُ النِّقالا[4]

ويقول فيه أيضًا :

كانتْ لآبائِهِمْ مذكورةٌ زَحَمُوا عنها قُرُومَ قُرَيشٍ ساعةَ ازدحموا[5]
لو ناضلوا الناس عن أحسابهمْ نَضَلُوا وإنْ قَضَوْا لم يجوروا فى الذى حَكَمُوا
فى أنَّ عِنْدَهُمُ واللهِ فَضْلَهُمُ للحَمْدِ سُوقٌ وللمظلومِ مُنْتَقِمُ
يزيد ذا الشيبِ منهم شَيْبُهُ كَرَمًا ويَسْتَنِيرُ فتاهُم حينَ يَحْتَلِمُ
فزادَهُمْ ربُّهمْ خَيرًا وفَضَّلَهُمُ بخيرِ ما فُضِّلَ السَلطانُ والأمَمُ

---

(١) حازم القرطاجنى – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – ص ٣٥١.
(٢) خليل مردم – الشعراء الشاميون – ص٣٢، ص٣٣.
(٣) ديوان شعر عدى بن الرقاع – المقدمة – ص١٦.
(٤) العيس: الإبل البيض يخلط بياضها شىء من الشقرة. النقال: النعال.
(٥) أبو هلال العسكرى – ديوان المعانى – ص٠٠٠

ويشير إلى الوليد فى مدحه لعمر مشيدًا بالأصل العربى:

والمرءُ يُورثُ مَجْدَهُ أبنـــــاءَهُ وبمـــوتُ آخَرُ وهو فى الأحياءِ[1]

نَسْيًا تُنوسىَ ليـسَ يَرْفَعُ رأسَهُ أبـــدًا لتـائرةٍ ولا لعَـــــــلاءِ[2]

ويمدح عدىّ الأسوار عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بانتسابه إلى قريش: فيقول:

زعَمَ الناسُ أنَّ خـــير قُرَيشٍ حسبًا حين تنسبُ الأسوار[3]

وينظم عدىّ مطولة فى عمر بن عبد العزيز، يقال أنه حبّرها سنة، وكان الأصمعى يقول لأصحابه: ألا أنشدكم حولية عدىّ ، يشيد فيها بالجنس العربى، وجاء فيها:

إذا ذَكَرَ الأقوامُ أحســـابَهُم نما إلى خير ما تنمى إليه المعاشِـــرُ

فتىً يملأُ الأبصـــارَ حينَ يَرَيْنَهُ بما تشـــتفى منه العيونُ النواظِرُ

فَمَنْ يَرَهُ لا يُـنْكِرُ الدهـــرَ وَجْهَهُ ولا صَوْتَهُ إنّ الخليطَ المُجـــاهِرُ

وثِيقُ القُوَى لا ينقـضُ القولُ عُقْدَهُ ولا ينكثُ الأمرَ القَـوىُّ المشاورُ[4]

يؤدى عدىّ بشعره السياسى ومدائحه فى المروانيين دور رجل الإعلام، لم يكن شاعرا عاديًا، لم يكن يمدح للعطاء، لم يكن ينافق كما فعل غيره من شعراء العقيدة، فلم يؤمن بالتقية، ولم تكن أغراض شعره تلك الأغراض القديمة التقليدية، بل عرف معنى الالتزام، ومعنى دور الشاعر المقرب للسلطة فى إعلاء صوتها، والنداء باسمها، والترويج لمذهبها، ومحاربة المعارضين لها، فكان الشعر السياسى فى ديوانه من أوضح الخيوط وأبرز الخطوط التى يقف عليها الباحث فى ديوانه.

وكان الاتجاه الحضارى واضحا فى ذلك الخيط السياسى، وبدا كما اتضح فى المحاور التالية:

– التزام الشاعر وإيمانه بصوت الجماعة يعد أثرا من آثار التحضر الفكرى والرقى المذهبى.

– الشاعر صوت الجماعة، والمعبّر عن رأى القوم، ويختلف فى تعبيره الحضارى عن تعبير شاعر القبيلة، الذى يتشنج لرأيه، ولا يعدل عنه، ويتوعد ويهدد، بينما قد يعدل شاعر الحضارة عن رأيه – أحيانًا – تمشيا مع هوى الجماعة، وإيمانًا بسياستها واتجاه الصالح العام.

---

(١) ديوان عدى – ص١٦.

(٢) نسيًا : لا يحفل به ، التائرة: الشر. العلاء : الشرف

(٣) ديوان عدى – ص١١٢.

(٤) ديوان عدى – ص ١٩٩، ص ٢٠٠ – وثيق القوى: أى سديد الرأى ماضى العزم.

ويروى أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى خبرًا يؤكد مُسايرة الشاعر عدىّ بن الرِّقاع لرأى الجماعة، عندما عدلت الجماعة عن رأيها، كان شعر عدىّ ملاحقًا لهذا التغير، ومترجما لهذا التحول، ومعبرا عن هذا التبديل، وقد جاء هذا كله فى قصة روح بن زنباع الجذامى مع يزيد ابن معاوية، والحكاية كلها مروية بتفاصيلها الدقيقة وما قيل فيها من أشعار فى الأغانى[1].

– يؤمن الشاعر بدوره الحضارى، فى التعبير عن رأى الجماعة، لا عن رأيه الذاتى، أو رأى الفرد، ويعرف طبيعة الدور الذى يؤديه مع المروانيين، ويعلن ذلك صراحة فى قوله[2]:

فسَوْفَ ينالُكَ مما أقولُ ... حَمْدٌ يَسيرٌ ويُسْتَطْرَفُ
وتنشرُهُ فى البلادِ الرُّواةُ ... والقُلْصُ الشُّسَّفُ العُسَّفُ[3]
تُطيّر مَنَاسِمَهُنَّ الحصى ... كما نَقَدَ الدرهَمَ الصَّيْرفُ
إذا ما اسْتَتَبَّ بأخفافِها ... مليعٌ مِن الأرَضِ أو جفْجَفُ[4]

ويتضح الاتجاه الحضرى فى الشعر السياسى عند عدىّ فى:

– شعر الفتوح وتصوير المعارك.

– وفى التأثر بشعراء الفرق الإسلامية.

– وفى التأثر بالتيار الإسلامى وبالحضارة الإسلامية.

– وفى الإحساس بالعروبة ومعنى القومية.

– وفى الإحسان فى مخاطبة الخلفاء.

حتى أضحى عدىّ ذلك الشاعر الأموى السياسى المتألق فكريا المتحضر فى تعبيره وفى تصويره.

---

(١) ديوان عدى – ص ١١٩ ، ص١٢٠.

(٢) ديوان عدى – ص١٦٣.

(٣) القلص: الفتيان من الإبل. والشسف: اليابسة من الضمر من طول السفر.

(٤) المليع: الواسع من الأرض. والجفجف: المستوى من الأرض فى غلظ.

ثانيًا : الغزل وصورة المرأة والأثـــر الحضـــاري

ثانيًا

الغزل وصورة المرأة والأثـــر الحضـــارى

الغزل غير صورة المرأة، الغزل تصوير الشاعر للمحبوبة، حقًـا أو زيفًـا، وصـورة المـرأة تعبـير الشاعر عن الأنثى، أيًا كان دورها، أما أو أختـا أو زوجـة أو ابنـة، أو أى دور آخـر غـير تلـك الأدوار، إذن فالغزل غرض، وصورة المرأة غرض آخر، والشعر العربى يقوم فى معظمه على المرأة غزلاً أو تصويرًا لدورها فى حياة الشاعر وحياة المجتمع من حوله، وربما دار معظم الشعر حـول هذا الغرض، حتى فى معظم بدايـات القصـائد، ومطالعـها كـانت حـول المـرأة أو ديـار المـرأة، ولا يخلو ديوان شاعر من التغزل ومن تصوير المرأة، ولا تخلـو معظـم القصـائد مـن هـذا الاتجـاه الوجدانى وهذا الخيط العاطفى حتى فى مخاطبة الشعراء للخلفـاء والـولاة، فكـم أعجبـوا بقـول شاعر فى الغزل حتى أن كعب بن زهير فى اعتذاره للرسول عليه الصلاة والسـلام تغـزل بسـعاد كما تغزل شاعر الرسول حسان بن ثابت فى بدايات قصائده فى مدحه للنبى المصطفى ﷺ.

والغزل من الأغراض التى تتأثر بشخصية الشاعر، بل هـو أكـثر هـذه الأغـراض، وذلـك لأن الشاعر حتمًا يصدق فى تغزله، أو المفروض أن يكون صادقًـا، فيعـبر عمـا يحـس بـه إزاء المـرأة وإزاء جمالها وما يشعر به القلب نحوها، فإذا كان الشاعر بدويا يعيش فى البادية صبغت صورة المرأة بهذا الاتجاه البدوى فى طريقة تعبيره عـن حبـه، والنمـوذج الأمثـل للمـرأة الجميلـة فـى نظره، والتصاوير والتشبيهات التى يأتى بها بالضرورة ستكون فـى معظمـها مـن مفـردات بيئـة البادية من حوله.

أما الشاعر المتحضر، أو ذلك الشاعر المحـب الـذى يعيـش فـى المدينـة لا الباديـة، والمتـأثر بظواهر الحضارة من حوله، يملأ عينيه بألوان التنعم واللذة، ويملأ أنفه بعبير الحضارة والرقى، ويملأ رأسه بأنماط التقـدم والإزدهـار، فـإن تعبـيره الوجدانـى عـن المحبوبـة، وتصويـره الفنـى لعاطفته أمور لا شك فى كونها متأثرة باتجاهات الحضارة التى يحياهـا الشـاعر، ويشـعر بـها، ويؤمن بها.

وقضية شعور الشاعر بما حوله من تحضر فـى البيئـة أمـر مـهم لا يغفـل دوره، فقـد يعيـش الشاعر فى تحضر وفى بيئة متحضرة ولكنـه يحيـا بعقليـة البـدوى الـذى لا يؤمـن بمـا حولـه،

ولا يحس به، والذى يناجى بخياله صور البادية التى ملكت قلبه ونفسه، ولم تترك لغيرها مجالا من التأثير فى قلب الشاعر.

والغزل من المضامين الشعرية التى بدا فيها أثر التحضر واضحًا جليًا، والغزل الحضرى مظهر من مظاهر الترف والنعيم، وصورة المرأة المحبوبة تتأثر بطبيعة الحياة ترفًا وشقاءً، حضارة وبداوة؛ والغناء الذى يتسابق المغنون على غنائه يعد من آثار البيئة المتحضرة المترفة الناعمة اللينة العشرة.

وإذا كانت الحضارة تبدو فى غزل عدىّ أكثر وضوحًا، فإن أسبقية التيار السياسى يعود إلى أهمية دوره الذى يؤديه فى خدمة المجتمع وفى تحريك خيوطه السياسية وصراعه من أجل السلطة، ومحاربة الصوت المعارض.

ومما لاشك فيه فإن بيئة الشام وطبيعتها، وظروف الحياة فيها، مثل انتشار الجوارى والقيان، وكثرة دور اللهو والحانات والديارات، وغزو نظرية الغناء من الحجاز إلى الشام، قد أسهم ذلك كله فى تحضر المرأة، وتخليها عن مظاهر البداوة، وخروجها من ذلك النمط البدوى الذى رسمه لها الشعراء.

ويعود الغزل الحضرى إلى أكثر من هذه العوامل يعود «إلى الاضطهاد السياسى وإغداق الأمويين المال ليتلهوا به عن المطالبة بالحكم، كما أن البيئة التى تحيا فى غير قليل من الحشمة والوقار، وتتحرر من قيم المجتمع وآدابه وأخلاقه العربية والإسلامية بعض الشىء، وهذا بطبيعة الحال يسهم فى تحضر المرأة، وتحررها ونبذها للتقاليد، التى كانت تحجبها عن الاشتراك فى ميادين الحياة العامة.

ولا يغفل أثر الإسلام فى رقة الغزل، وفى عفته، وفى نقاء صورته ونقاء ألفاظه، وسمو معانيه، فصار غزلاً عذريًا طاهرًا عفيفًا، يحمل من المشاعر الدينية العفة والوفاء والمودة والصدق، ويتوسل - أحيانًا - ببعض ألفاظ القرآن الكريم كالذنب والظلم والغفران والصفح والتوبة وغيرها.

إن الشاعر عديا من حضارة الشعراء لا من باديتهم، فهل كان لذلك أثر فى تصويره للمرأة؟

يجيب على ذلك خليل مردم فى قوله:

«نعم، إن اطراد تشبيهاته وتساوق أبياته وتلاحمها، وتهذيب قوافيه، وحسن صياغته، وما فى تشبيهاته من معان حضارية، وما فى قصائده من ماء وظل ونعيم؛ كقوله:

فَقَدْ أبيتُ أناغى الخود دانِيةً على الوسائد مسرورًا بها ولعا[1]

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى - الأغانى - جـ ٩ . ص ٣١٤، ص ٣١٥.

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهيته، فإن شعراء البادية يتوسدون فى باديتهم أعضاد المطايا، وعدىّ يراعى الخود على الوسائد ويعلل ظل الأيك بدمشق بنوم هنئ تترنم فوقه الحمائم»[1].

وليس أدل على رقة غزله من شهادة جرير، عندما سأله ابنه: يا أبت، من أنسب الشعراء؟

قال جرير: أتعنى ما قلت؟

قال: إنى لست أريد من شعرك، إنما أريد من شعر غيرك.

قال: ابن الرِّقاع فى قوله:

لَوْلاَ الحَيْاء وأنَّ رأسى قَد عَثا ... فِيه المَشِيْبُ لَزُرْتُ أم القَاسِمِ

وَكَأنَّها وَسْطَ النِّسَاء أعَارَها ... عَيْنَيه أحْوَر مِنَ جَآذِرَ جَاسِمَ

وَسْنَانُ أقْصَدَهُ النّعاسُ فرنَّقَتْ ... فِى عَيْنِيــه سِنَةٌ وليسَ بنائمِ

ثم قال لى: ما كان يبالى أن لم يقل بعدها شيئًا».

وقال أبو عمرو الشيبانى: قرأ على رجل من أهل المدينة شعر عدىّ بن الرِّقاع، فلما قرأ البيت (وسنان..)

قلت: أحسن والله. قال: فالتفت إلىّ ثم تنفس وقال كيف لو سمعته يا أبا عمرو مشبوحًا بين أربعة لكنت أشد استحسانًا، يعنى إذا كان يغنى على العود.

ويرتبط الغزل بالغناء ارتباطًا قويًا، والغناء مظهر من مظاهر التحضر، والغناء يختار من الغزل ما لطف، وكثيرا ما تجنب المطربون المعانى الجافة، والألفاظ الكزّه، ومالوا إلى الرقة والخفة، وكان لشعر عدىّ نصيب كبير فى اختيار المغنين، فقد أمدّهم بأصوات، استطاعوا أن يجعلوا منها ألحانًا ترددها العرب فى أوقات فراغهم، وفى مجالس لهوهم، مصحوبة بالآلات الموسيقية وبالشراب ومجالس الشراب.

ويؤكد أبو الفرج الأصفهانى ذلك، عندما يعلق شيخ من الحاضرين على حسن قول عدى «لولا الحياء» بقوله «والله لئن كان عدىّ أحسن لما أساء معبد - والله لو سمعت لحنه فى هذا الشعر لكان طريك أشد واستحسنت له أكثر»[2].

ويعجب عدىّ بشعره عندما يسمع ابن سريج يغنى له «عرف الديار..»، والقصة كاملة فى الأغانى»[3].

---

(١) ديوان عدى - ص ٢١٤. ص ٢١٥ - المقطوعة رقم ٢٣.

(٢) د. حسين عطوان - شعراء الدولتين الأموية والعباسية - دار الجيل - بيروت - ط ٢ - ١٩٨١ : ص ٢٨.

(٣) ديوان عدى: ص ٢١٦.

وعصر بنى أمية أول عصر يهتم بالغناء وتطوره.

«فقد أخذ جمهور الموالى ينهض بفن الغناء العربى، نافذًا مع بعض العرب الخلص إلى وضع نظرية الغناء بإيقاعاتها المختلفة، وما يصل إلى أواخر العصر الأموى حتى تتحول أسراب موجة الغناء والرقص الحجازية إلى بلاط الخلفاء فى دمشق»[1].

يذكر النويرى فى نهاية الأرب فى أخبار المغنين، الذين نقلوا الغناء من الفارسية إلى العربية، ومن أخذه عنهم، والغناء قديم فى الفرس والروم، ولم يكن يعرف إلا الحداء والنشيد ويسمونه الركبانية..»[2].

وينتشر الغناء فى ظل بنى أمية، بين مهتم ومعتدل ومبالغ، وتزداد درجة اللهو والترف، وتكلم الناس فى الغناء، بين محل ومحرم، ويذكر النويرى هذه الآراء جميعها فى نهاية الأرب[3].

ويمنح الوليد بن عبد الملك المغنى الخلع والهدايا، ويضع بين يديه أكياس الدنانير، وبَدَر الدراهم كما يقول النويرى[4].

وينتقد المؤرخ جوزيف هل مجالس الغناء التى عقدها بعض الخلفاء الأمويين، ويذكر أن تأثر الخلفاء بالغناء وهم وراء الستر كان يأخذ صورًا سقيمة، ولاسيما عندما يستخف بهم الطرب[5]، فمنهم من كان يخلع ملابسه، ومنهم من كان متعلقًا بجارية، فتموت ويرفض دفنها، ويبقى بجوارها يبكيها.

والأصوات التى اختارها الأصفهانى ليست كل الأصوات التى غناها المطربون من شعر عدىّ، فتطالعنا مصادر أخرى غير الأغانى، مثل نهاية الأرب عندما يذكر غناء ابن سريج للوليد من شعر عدىّ، وفيه:

طارَ الكَرَى وألَمَّ الهَمُّ فاكتَئَعا ... وما تذكَّرَ مَنْ قَدْ فاتَ وانْقَطَعَا

كانَ الشبابُ رداءً اسْتَكِنُّ بِهِ ... واستظلُّ زَمانًا ثُمَّتَ انْقَشَعَا

وبُدِّلَ الرأسُ شَيْبًا بعدَ داجِيةٍ[6] ... فَيْنَانَةٍ ما ترى فى صُدْغِها نَزَعا

فإنْ تكُنْ مَيْعَةٌ من باطِلٍ ذَهَبَتْ ... وأعْقَبَ اللهُ بعدَ الصَّبْوَةِ الوَرَعَا

---

(١) خليل مردم – الشعراء الشاميون – ص ١٢.

(٢) ديوان عدى: ص ١٢٢.

(٣) الأغانى – جـ ٩ – ص ٣١٢.

(٤) الأغانى – القصة كاملة – ٩/ ٣١٢.

(٥) د. شوقى ضيف – فصول فى الشعر ونقده - دار المعارف – ط ٢ – ١٩٧٧ – ص ٣٤. ص ٣٥.

(٦) داجية: جمة قد ألبسته من طوليا وكثرة شعرها، أى: ألبس الناسَ.

فَقَدْ أبيتُ أناغِـي الخَـوْدَ دانِيَـةً على الوسـائِدِ مَسْرُورًا بِهـا وَلَعَـا
بَـرَاقَةُ الثَّـغْرِ يشـفى النفسَ لَذَّتُهـا إذا مُقَبِّلُهـا فى ثَغْرِهـا كَمَعَـا
كالأقْحوانِ بضاحِي الروضِ صبَّحهُ غَـيْثٌ أرَشَّ بتَنْضـاحٍ ومـا نَفَعَا

ويذكر النويرى[1] - أيضًا - أن أبناء الخلفاء كانوا يغنون من شعر عدىّ، ومنهم المعتز بالله بن جعفر المتوكل ومنه:

لعمرى لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب

وأبيات من شعر عدىّ يشيد النقاد بها، ويصفونها بالرِّقة، ويروى الحصرى القيروانى، بعضًا منها، فى زهر الآداب، وما قاله الأصمعى عندما سأله أعرابى:

ألا تنشدنى شعرًا ترتاح إليه النفس، ويسكن إليه القلب، فأنشده:

وناعِمَةٍ تَجْلُـو بمـاءِ غَمامَـةٍ مُؤشِرَةٌ يَسْبِى المُعانِقَ طِيبُهـا
كـأنَّ بهـا خَمْـرًا بمـاءِ غَمامَـةٍ إذا ارْتشِفَتْ بَعْدَ الرقادِ غُروبُهـا
أراكَ إلى نَجْـدٍ تَحِـنُّ وإنَّمـا مُنَى كلِّ نَفْسٍ حيثُ كانَ حَبيبُها[2]

ويرسم عدىّ نموذجا رائعًا للمرأة المتحضرة فى شعره، لها ملامح خاصة بها، تختلف عن المرأة البادية، فهى إمرأة عربية، تجمع أحلى ما فى القبائل العربية من شمائل، فهى رمز للقومية، فيها أحلى ما فى قبيلة قضاعة، وأجمل ما فى كنده، وأحسن ما فى خزاعة، وأفضل ما فى طَىٍ، فيها حكمة لقمان، ومنطق داود، وعفة مريم العذراء.

قُضَاعِيَّةُ الكعبين كِنْدِيَة الحَشا خُزَاعِيـة الأطرافِ طائِيـة الفـم
لهَا حُكْم لقمانَ وسُورة يوسِف ومنطـقُ داود وعفـة مريـم

ويبدو جمال المرأة وآثار التحصر فيها فى شعر عدىّ فى إطارين:

الأول - الترف والنعيم ومظاهرهما على المرأة.

الثانى - اللون والجسد والرشاقة..

ويقول عدى شعرًا يؤكد ملامح المرأة الجميلة المتحضرة، وهو كثير فى ديوانه ومنه:

ألهـو بواضحةِ الخَـدَّينِ طَيِّبَـةٍ بَعدَ المنامِ إذا ما سَرَّها ابتذلا[3]

---

(١) النويرى - نهاية الأرب فى فنون الأدب - جـ ٤ . ص ٢٣٩.

(٢) النويرى - نهاية الأرب فى فنون الأدب - جـ ٤ . ص ٢٤١.

(٣) النويرى - نهاية الأرب- جـ٤- ص ٢٠٤؛ وديوان عدى- ص ٢٣٢. (أصحرت: برزت - مصعب بن الزبير).

وهى امرأة جيداء، جميلة العنق طويلته، لين متناها من ترف المعيشة:

دارٌ لصفراءَ التى لا تَنْتَهِى ... عن ذكرها أبدًا ولا تنساها

جَيْداءُ يطويها الضجيعُ فتنطوى ... طَىَّ الحَمالةِ لينُ مَتْناها

صادَتْكَ أختُ بنى لُؤَىٍّ إذْ رَمَتْ ... وأصابَ سَهْمُكَ إذْ رَمَيْتَ سواها[1]

وامرأة عدىّ المتحضرة، لا تخرج والشمس طالعة، ولكنها تنتظر حتى الغروب، لتحل بضوئها وجمالها محل الكوكب الغائب، وتشكو سهدا سَّببه لها هم ضعيف، فهى مخدومة نؤوم الضحى، لا تنتطق عن تفضلٍ، يخطب ودّها الجميع، مترفة منعمة، تتوسد معصمها، وبنانها يشبه هدّاب الدمقس، تسأم من طول الجلوس.

وبيضاء يصطادُ الغُواةَ حَديثُها ... ترى فاحماً أحْوَى وغَيْلاً مُوَشَّمَا[2]

رأتْ فَزَعًا فى أهْلِها فاستطارَها ... صراخُ يقينٍ ليسَ ظَنًّا مُرَجَّمَا

كَمثلِ مَهَاةٍ ما تَحِنَّ قِلادَةٌ ... ولا مَعْقِدًا فى ساقِها مُتَخَذَّمَا

فلما تَوَلّى حاجِبُ الشمسِ لازَمَتْ ... على بَصَرٍ من باحةِ الأرضِ مَجْثِمَا

يُسَهِّدُها الهَمُّ الضعيفُ كأنَّما ... تماطِلُ دونَ الصبحِ حَوْلاً مُجَرَّمَا

إذا سَئِمَتْ طُولَ الجلوسِ تَوَسَّدَتْ ... بنانًا كهدّابِ الدِمَقْسِ ومِعْصَمَا

وباتَتْ تُنادى أمُّ جَعْدَةَ زَوْجَها ... إليها وما تَدْعوا حَميمًا ولا حَمَا

فلما انجلى عنها الصريمُ وأبْصَرَتْ ... هجانًا يُسامى الليلَ أبيضَ مُعْلَمَا[3]

غَدَتْ فى قَمِيصَيْها فَضَاقَ نَصيفُها ... وما أَلْبَسَتْهُ الرأسَ إلاّ تَعَمَّمَا

* * *

ويستمر عدىّ فى تصويره للمرأة، نموذجًا للترف والتحضر، ويبدو آثار التحضر فى رسمه للنموذج الأجمل للمحبوبة، أو للمرأة بعامة التى تعيش فى ظلال الأرائك وبين الحدائق، وتنعم بالرفاهية، ولين العيش، بعيدة عن جفاء البداوة، وخشونتها، فيقول:

---

(١) الحصرى القيروانى (أبى إسحق إبراهيم بن على) زهر الآداب وثمر الألباب – ت: على محمد البجاوى.

(٢) ديوان عدى . ص ١٩٥؛ ص ١٩٦ (استطارها: استخفها – المرجم: الذى يتكلم فيه بالظنون وليس بمستيقن – تماطل: تطاول – مجرم: تام قد انقضى، وأصله من جرمت: إذا قطعت.

(٣) الصريم: الليل – والصريم: الصبح.

فإنْ تكُنْ مَيْعَةٌ من باطِـلٍ هَبَـتْ وأعْقَبَ اللهُ بعـدَ الصَّبْوَةِ الوَرَعَـا
فَقَدْ أبيتُ أنـاغِي الخَوْدَ دانِيَـةً على الوسائِدِ مَسْرُورًا بِهـا وَلَعَا
بَرَاقَةُ الثَّغْرِ يشفى النفسَ لَذَّتُهـا إذا مُقَبِّلُها فى ثَغْرِهـا كَمَعَا
كالأقحوان بضاحى الروض صبَّحهُ غيثٌ أرَشَّ بتَنْضـاحٍ وما نَقَعا[1]

وهُن أشبه بالدُمى الحُور المصورة، فقد أحسن الله سبحانه وتعالى خلقهن، وأتمها، لا يعرفن السوء، عفيفات، يرحن القلب المكلوم، لا تبدو آثار الشقاء عليهن:

لاقَيْنَ عَيْشًا مِن الدنيـا سُـعدْنَ بهِ وما المعيشـةُ إلاّ مُتْعَـةٌ سَـلَفَ
وفـى الفريقِ الأُلَى باتـوا مُنَعَّمَـةٌ هيفاءُ لم يَغْذها من عيشها شَظَفُ[2].
وفـى الخُدور دُمىً حُـورٌ مُصَـوَّرَةٌ خُلِقْنَ أحسن مما قـالَ مَنْ يَصِفُ
إذا ذكرْنَ حَدِيثًـا قُلْنَ أحْسَـنَهُ وهُنَّ عـن كُـلِّ سُوءٍ يُتَّقَـى صُـدُفُ
قَـدْ كُنَّ للقلـبِ همًّا فهـو مُخْتَبِـلٌ صَبٌّ بهـنَّ ولـو عَذَّبْتَـهُ كَلِـفُ

يقول أبو الهلال العسكرى فى ديوان المعانى[3]:

قال أبو عمرو لأصحابه:

ما أحسن ما قيل فى العيون؟

قيل: قول جرير:

إن العيـون التى فى طرفهـا حور قتلننـا ثم لـم يحيين قتلانـا

وقيل قول ذى الرمة:

وعينـان قـال الله كونـا فكانتـا فعولان بالألباب ما تفعل الخمرُ

فقال عمرو بن العلاء:

أحسن من هذا كله، قول عدىّ بن الرِّقاع:

وكأنها بين النساء أعارها..

البيتان.

---

(١) ديوان عدى . ص ٢١٦، ص ٣١٧ – القصيدة رقم ٢٤. ميعة الشـباب: دفعتـه الأولى. كمـع: شـرع وكـرع فـى الحوض.

(٢) ديوان عدى . ص ٢٣٦.

(٣) ديوان المعانى للعسكرى: ص ٨.

ويضيف عدىّ فى رسمه لجمال المرأة المتحضرة عناصر أخرى، تزيد من جمالها، وتعبر عن ترفها وتحضرها، ومنها كحل العين، والخضاب، والحلى والجواهر الكريمة، فى الجيد وفى المعصم، والملابس الحضرية الثمينة، التى تدل على التحضر.

والتكحل من عادات العرب الشائعة فى الجاهلية «وكان الكحل والإثمد من أهم العلاج المستخدم للعيون، بالإضافة إلى كونه زينة فى عيون النساء والرجال، وكان معروفًا لدى العرب ولدى الأمم الأخرى، وكانوا يتخذون الكحل من حرق اللبان، أو قشور اللوز، ومن السخام المتبقى من حرق بعض الدهون والزيوت»[1].

وفى صبح الأعشى أن زرقاء اليمامه أول من اكتحل بالإثمد[2] كما روى القلقشندى[3].

وقد تغزل الشعراء بكحل العينين فى الجاهلية، وبعد الجاهلية، وهو أثر من آثار تحضر المرأة واهتمامها بجمالها.

وفى المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، ما يؤكد أن الكحل عند العرب أزين الزينة، وكان أبو الأسود يوصى ابنته بقوله: «عليك بالزينة وأزينها الكحل»[4].

والخضاب من مظاهر زينة المرأة، عرفتها نساء الجاهلية، وتغنى بها الشعراء، وقد أفرد د. يحيى الجبورى بحثًا طريفًا حول الزينة فى الشعر الجاهلى، وأفاض فى وصف مظاهرها، وذكر ما قاله الشعراء عنها[5].

وقد وصف الشعراء قلائد النساء وعقودهم، واهتموا بتصوير حلى المرأة فى جيدها، وفى صدرها، وما ترصع به وسطها، وتشد به خصرها، كالوشاح، والبريم وغيرهما[6].

ومن مظاهر تحضر المرأة فى وصف عدىّ لها، الاهتمام بتصوير ملابسها، والاهتمام بتصوير زينتها وحليها، والنماذج عديدة فى ديوان عدىّ تؤكد اهتمامه بالمرأة المتحضرة وتصوير آثار التحضر فى تشكيل جمالها.

---

(١) د. يحيى الجبورى – الزينة فى الشعر الجاهلى – دار القلم – الكويت – الأولى – ١٩٨٤ . ص ١٩٢.

(٢) اللسان – مادة ثمد.

(٣) القلقشندى – صبح الأعشى . ١/ ١٣٤.

(٤) المحاسن والأضداد – ص ١٩٦؛ عيون الأخبار . ٤/ ٧٧.

(٥) د. يحيى الجبورى – الزينة – صفحات متفرقة فى الكتاب.

(٦) فى اللسان – وشح: التوشح بالرداء: البريمة فى الصحاح: الحلى التى تشدها المرأة على وسطها.

يقول عدىّ فى جمال المرأة المتحضرة[1]:

ظاهرو الأنْس والعفاف إذا ... ما لُزَّ بينَ البيوتِ بالأطنَابِ
وسَبَتْهُ بناصعِ اللون حُرٌّ ... وثنايا مُفَلَّجاتٍ عذابِ
دُمْيَةٌ شافَها رجالٌ نصارى ... يومَ فَقْحٍ بماءِ كَنْزٍ مُذابِ
أو مَهَاةٌ تَبَلَّج الليلُ عنها ... باللِّوى بينَ عالجٍ فالجنابِ
وإذا الناشىءُ الرَّفَلُ رآها ... لَجَّ من ذاتِ نفسِهِ فى التصابى
هُجَّدًا فاترِى العيون تراهُمْ ... كالثمالى وما انتَشَوْا من شَرابِ

ويمزج الشاعر فى الصورة السابقة بين عناصر بدوية بأخرى حضارية، غير أنه يفضل الصفات الحضارية ويقدمها، وكأنما أتى ببعض صور البداوة مقرونة بصور التحضر حتى يظهر جمال الأخيرة ورونقها فهى بيضاء ناصعة اللون، ثناياها فلج عذاب، وهى جارية جميلة جلاها وحسنها نصارى، ألبست الحلى، وجُليت بماء الذهب.

ويصور عدىّ العروس والتزين فى صور حضارية فى قوله[2]:

كالزَّين فى وَجْه العروس تَبَدَّلتْ ... بعدَ الحياءِ فلا عَبَتْ أرْآدَها
تزجى أغَنَّ كأنَّ إبرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أصَابَ من الدّواةِ مِدادَها
بانَتْ سُعادُ وأخلفتْ ميعادهَا ... وتباعَدَتْ مِنّا لتمنعَ زَادَها
إنّى إذا ما لَمْ تَصِلْنِى خُلّتى ... وتَبَاعَدَتْ عنّى اغتَفَرْتُ بَعادَها
فلقد تَبيتُ يُد الفناة وسادَةً ... لى جَاعِلاً يُسْرَى يَدَىَّ وسَادَها

وما أروع أن يعامل الشاعر المرأة معاملة حضارية، حتى ولو كانت السبايا المباحات، يحترم أنوثتها، ويغشى بصره عنها، ولا يسلك طريقًا محرمًا، ولا يستمتع بما حرم عليه، وحسن سبايا حفاة، وملابسهم البرود والقبطية والريط الحريرية، ولكنه لا يستبح سوءًا، ولا يغشى محرما وكأنما يسلك طريقه بعده أبو فراس الحمدانى فى معاملته للمرأة السبية.

---

(١) ديوان عدى – ص ٤٩: ص ٥٢. ٠(لُزَّ الشىءُ بالشىء: أى قُرِنَ به. الأطناب: الملاصق لجاره.)

(٢) ديوان عدى: ص ٨٤ ، ص ٨٧.

الزين: يريد نقطًا فى وجه العروس تكون من زعفران. الأرآد: الأتراب، واحدها: رِيد. تزجى: أى تدفع قدمًا ليمشى من صغره وضعفه أغنّ: أى: هو صغير ضعيف الصوت لم يصفُ صوته. وإبرة روقه حدة الروق القرن. أخلَفَتْهُ: لم تقف له على وعدٍ. زادها: أى ما تمنعه من حديثٍ ونظرٍ. الخلة: الصديق والصداقة. اغتفرت: احتملتُ.

يقول عدىّ:

فلمـــا رَأَيْناهُـــنَّ يَعُدْنَنَـــا حُفـاةً حَذَوْناهُنّ ظَهْـرًا مُ زَمَّمَـا[1]
جَمَعْنا بسَبْيٍ جاءنا من نسائهـم بُـرودًا وقبْطِيًّا وربطًـا مُرَقَّمـا
فَأَبْـن إليهـم مـن ندانـا بنعمـةٍ ولم نستبح سوءًا ولم نغش مُحْرِما

والمرأة المحبوبة، جميلة، منعمة، ثيابها جميلة، ثغرها لذيذ، لثتها حسنة مصقولة، يقول عدىّ فى تحضر المرأة الجميلة:

ولَقَـدْ تُعَلِّلُنـى مُنَعَّمـةٌ لهـا بَوْضٌ إذا تَضَعُ الثيابَ جَمِيلُ[2]
بَـرَدَ المُقَبَّلُ مـن لذاذةِ ثَغْرِهـا حُمْشُ اللِّثاتِ كأنـه مَصْـقُولُ

وفى جمال المرأة المتحضرة يقول عدىّ[3] يجمع بين علامات التحضر من حلى وملبس:

أخُطُوَةُ شَـوْقٍ فـى الفـؤادِ تَغَمَّرتْ لتَنْكَـأَ قلبًا مُسْتَهَامًـا فيَطْرَبَـا
من الخَفِراتِ البِيضِ يَحْسِبُ لَوْنَها إذا طـارَ عنها مِدْرَعُ الشَّـفَّ مَذْهَبَـا
ترى الحُلْىَ منها فى عَوارضِ حُرَّةٍ وأَوْرَقَ للعينيـن والنَّفْـسِ مُعْجِبَـا
تقـولُ وإعـلانُ العِتابِ مَلامَـةٌ أأَجْمَعْـتَ هِجرانًـا لنـا وتَجَنُّبَـا؟

* * *

ومظاهر التحضر فى شعر عدى تبدو فى المعانى والألفاظ والصور، وحضرية الغزل فى شعر عدى ظهرت فى تصويره محاسن المرأة وجمالها، وتعبيره عن ذوقه الحضارى الخاص، وتصويره جو الحضر المونق النير النبت، وقد تغشاه الزهر، ويصور طيب رائحة المرأة وعذوبتها وجمال ريقها، ويشبه ذلك بالزنجبيل والأقحوان وألوان أخرى من العطر والزهر والنبات والتفاح وغيره من مظاهر العيش المترف، كما تبدو صورة المرأة المتحضرة فى شعر عدى فى تصوير ملابسها وزينتها.

إنها امرأة متحضرة، ليست من نساء البادية، ولم يجعل عدى قصيدة كاملة فى المرأة، فلم يكن من شعراء الغزل، إنما جعلها وسيله لاستهلال قصائده، ومطالعه فكانت من أروع فنيات الاستهلال فى شعره، كما أنها وردت فى ثنايا قصائده، تعبر عن ذوقه المتحضر فى التعلق بالمرأة الجميلة فى خلقها وفى حليها وفى زينتها وفى ملابسها حيث بدت آثار الترف والتنعم والحضارة عليها.

---

(١) ديوان عدى . ص ١٩٦.
(٢) ديوان عدى . ص ٢٠٤، ص ٢٠٥.
(٣) ديوان عدىّ – ص ٢٢٩ ، ص ٢٣٠ .

ثالثًا : الوصف والحضارة
فى شعر عدىّ

(أ) الطبيعة.

(ب) العمران.

(جـ) الترف ومظاهر الحياة الاجتماعية.

(د) المبادئ والإنسانية والحضارة.

(هـ) شخصية الشاعر الحضارى عدىّ بن الرّقاع العامليّ على ضوء شعره.

ثالثًا

الوصف والحضارة فى شعر عدىّ

الغرض الثالث من الأغراض التى تأثرت بالحضارة فى شعر عدىّ، وربما كان هذا الغرض هو الغرض المادى الأوحد بين الأغراض الأربعة التى أخضعها البحث للدراسة، والثلاثة الأخرى سياسة وغزل وقيم إنسانية يتدرج معظمها فى إطار المعنويات، ومن المؤكد أن غرض الوصف أظهر الأغراض وأوضحها وأبرزها فى التأثر بحضارة البيئة وبداوتها، والوصف من أعرق أغراض الشعر العربى ومن أحدثها، ولعله الفن الذى يظهر براعة الشاعر وتملكه أدوات فنه وقدرته على الوصف والتصوير.

ويتوزع الوصف بين مادى ومعنوى، أو ينقسم إلى الطبيعة الحية المتحركة النشيطة المتغيرة المتطورة، والطبيعة الجامدة الثابته الصامدة، ومن الطبيعى أن يدخل الحيوان بأنماطه وأنواعه وغرائزه وسلوكياته ورؤية البشر له أيضا فى باب الوصف.

والوصف فى الجاهلية أو قبل الإسلام غير الوصف فى عصور الحضارات، والوصف فى الشرق غير وصف الغرب، ومفردات البيئة البدوية ومعطياتها، تختلف أشد الاختلاف عن زميلتها فى البيئة المتحضرة، البداوة بقيظها وهجيرها، ورمالها ووديانها، وكثبانها وحيواناتها، والبيئة الممطرة المزهرة ذات الغيوم والسحب والبرق والرعد والأمطار تختلف تماما عن سابقتها، فبيئة الحجاز تختلف عن بيئة الشام ودمشق، والشاعر الذى عاش فى بلاد الحجاز صورة الوصف عنده مضمونا وصياغة تختلف عن الشاعر الذى يقضى حياته فى دمشق مع الغيم والسحب والمطر والروض والزهر، والاختلاف يبدو فيما يقع عليه بصر الشاعر، وفى طريقة صوغه للمعطيات التى أتاحتها البيئة له.

***

والوصف فن نفسى سيكولوجى معقد أحيانا وبسيط أحيانًا أخرى، ولا يُعنى بالوصف قدرة الشاعر على النقل الآلى أو الحركى أو الحرفى، فهذا يعنى مسخ الصورة الأصلية والعجز عن اللحاق بها، وعدم إمكانية تصويرها فالطبيعة الأولى بأصولها لابد وأن تكون هى السابقة، ولكن الوصف فى الشعر نقل فنى، تتدخل عاطفة الشاعر فى طريقة النقل، ويتحكم وجدانه فى كيفية الصوغ، فيرى بعدسة الفنان، ويصور بريشة الرسام، ويتحكم فى الزوايا والأركان، ويأتى

برغبته ما يشاء من الألوان، حتى تبدو اللوحة التى يصفها أجمل من الواقع المرئى، وذلك لأن الوصف هو ذلك الفن الخالد الذى يتبارى فيه الشعراء الفنانون حين يتفقون على منظر واحد وتختلف حوله الرؤى فينجذب البعض إلى لوحة ما دون غيرها من اللوحات.

ولطالما برع شعراء العرب فى وصف البادية وفى وصف بيئات الحضارة، وقد يهتم هذا البحث بوصف الطبيعة التى حباها الله سبحانه وتعالى لتلك البيئة التى عاش فيها الشاعر عدىّ ابن الرِّقاع العاملى حيث الطبيعة الخضراء، والرياض المزهرة، والجمال الأصلى الذى يبدو فى البرق والغيم والسحب والمطر، وغيرها، كما اهتم أيضا هذا الجزء بدراسة الأثر الحضارى فى العمران والبناء، وتشييد القناطر والجسور، والديار والقصور، وما فيها من زخارف وألوان التقدم الحضارى المتأثر بحضارات أخرى والذى يخضع للذوق العربى والمزاج الإسلامى، كما يدرس أيضا مظاهر التقدم الحضارى فى المجتمع فيصف الشاعر الملبس والمسكن والمأكل وألوان التريّض ومظاهر التنعُّم والترف ووسائل الصيد من صقور وطيور وألوان أخرى عرفها المجتمع الشامى وأهتم الشاعر برصدها وتسجيلها.

* * *

ويتوزع هذا الجزء بين خمسة أقسام هى:

(أ) الطبيعة.

(ب) العمران.

(جـ) الحياة الاجتماعية.

(د) القيم الإنسانية.

(هـ) شخصية الشاعر الحضارى.

أما عن:

(أ) الطبيعة

فإن مفردات الطبيعة التى يصورها عدىّ، وهى طبيعة الشام، تختلف عن طبيعة بادية الحجاز، التى ألف الشعراء تصويرها، ولا يعنى البحث بالتحضر فى وصف الطبيعة أنها من صنع التقدم والمدنية أو أنها بفعل الإنسان، أو أنها نتيجة الاحتكاك والامتزاج والاختلاط، ولكنه يعنى أن مظاهر الطبيعة الشامية غير الطبيعة الحجازية فى الصورة والمناخ وفى مظاهر البيئة، وأنواع الحيوانات والنباتات المعروفة فى البر وفى الصحراء، وأثر ذلك فى طبائع الإنسان وفى فكره، وطبيعة الشام بما فيها من سحب وغيوم، وغيث ومطر وبرق ورعد،

وما فيها من رياض وأزهار وورود، ومما لاشك فيه فقد أثر ذلك كله فى فكر الشاعر وفى صوره وتشبيهاته.

وقد استطاع عدىّ أن يصور مظاهر الطبيعة الشامية الحية المتجددة فى شكلها، وفى عطائها، كما صورّ أثر الإنسان فى الاستفادة من هذه الطبيعة، واهتمامه بالبناء والعمران ومظاهر الترف الأخرى.

أما مظاهر الطبيعة الشامية التى تختلف عن مظاهر طبيعة بادية الحجاز، فقد أكثر عدىّ من تصوير الربيع والمطر والنبات، وتصوير الغيث والغيم والرياض والأزهار والأقحوان، وتصوير الموج والغوص والبحر والرعد والبرق وقوس قزح، إلى آخر تلك الصور التى كثرت فى شعر الحواضر، وندرت فى شعر البادية، واستطاع أن يصور أثر هذه الظواهر فى الحياة وفى الأحياء.

والربيع المطر عند عدىّ يتوسل به فى دعائه بالخير؛ فيقول:

فسُقِيتِ من دار وإنْ لم تَسْمعى أصواتنا صَوْبَ الربيعِ المُسْبَلِ[1]

والربيع ممطر دائمًا عند عدىّ، وهو ربيع الشام، ويقرن بين الربيع المطر وعطاء الوليد وكرمه، وصنع عدى لوحات من عناصر الطبيعة من المطر والغيم، وأدخل معها الممدوح، كما صور الرعد، والسحاب المثقل بالمطر، وجمع بين المزن والرعد والمطر والسيل والبرق، وفرق بين أصناف البشر، وصورهم بالبرق، فمنهم من يحمل مطرًا، ومنهم من لا يحمل المطر.

فجئتُهُ أبتغى ما يطلبونَ وما المستوردُ البحر كالمستوردِ الوشلا
غيث خصيبٌ وعزٌّ يُستَغَاثُ بهِ إذا أتاهُ طَرِيدٌ خائِفٌ وَألا[2]

ويقول:

وإذا الربيعُ تتابعَتْ أنواؤُهُ فسقى خُناصِرَةً[3] الأحَصَّ فجادَها
نَزَلَ الوَلِيدُ بها فكانَ لأهْلِهَا غَيْثًا أغاثَ أنيسَها وبلادَها
أوَلا تَرَى أنَّ البَرِيَّةَ كلَّها ألقَتْ خزائِمَها إليهِ فقادَها[4]

---

(١) ديوان عدى . ص ٦٩ – سقاه الله الغيث وأسقاه. صوب الربيع: مطره، والسيل: المطر.

(٢) ديوان عدى . ص ٨٠ – وألا: أى نجا. يقال: أى طلب النجاة فما نجا.

(٣) ديوان عدى . ص ٩١ – خناصرة: موضع بالشام. والأحص: جبل. الأنواء: جمع نوء وهى الأمطار.

(٤) خزائم: جمع خزامة، وهى حلقة من صفر.

وقوله فى النعيم والسحاب والمطر والزهر[1]:

كأنَّ غمامـةً نضحـت ذراهـا ... على أنيابهـا عَذْبًا زُلالا
وماءُ سحابِ مُقْفَرةٍ زَهَتْهـا ... جَنُوبٌ نَفَّضَتْ عنهـا الطَّلالا
يـرفُّ الإقْحـوانُ بحافَتَيْهـا ... بحيثُ يقابِلُ الجلدُ الرِّمالا[2]

ويصور عدىّ ما شيّده الوليد من قناطر وأبنية بقوس قزح الذى يظـهر فـى السماء بعـد المطـر لامعًا، فيقول:

بـهِ كُلُـومُ صوافـيرٍ مُذكَـرَّةٍ ... تَرُنُّ منه ضواحى الصَّخْر إرنانـا
بَنَـوا قناطِـرَهُ حتـى إذا جعلـوا ... لَهُ مـن الجَنْدَل العـادِىّ أركانـا
فأحْسَنَ الصَّنْعَ بنَّاءوكَ وارتفعوا ... فـوق الذيـن تَغَنَّـوا فيـه أزْمَانَـا
كَسَوْهُ من عَمَـلِ الصّنّاعِ مُلْتَهِقًـا ... يَكادُ يختَطِفُ الأبصـارَ عِقْيانـا
كأنَهُنَّ قِياسُ الصيفِ إذْ طَرَدَتْ ... كَنَهْـوَرًا فَزَحَـتْهُ رَيَّانـا
إذا حَدَتْ قَزَحٌ منه سَحابَتَهـا ... رَأيْتُ منه الشَّؤْبوبِ ألْوانـا[3]

وعدىّ يصف ماعون بيته، ويصور ما تقع عليه عينه، ويرسم لوحة الطبيعة المطرة المزهـرة، ويصدق فى تصويرها، وعندما يرسم لوحات أخرى فإنه يقلد تقليدا، ويصـف محمـد كـرد علـى فى خطط الشام لوحة الطبيعة المطرة التى صورها عدىّ فى بعض شعره فيقول محمد كرد على:

«أنه قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها، فتهاطل الأمطار والثلوج.. فهو مصطاف ومرتبع ومشتى فى آن واحد»[4].

وربما يعد البعض وصف عدىّ للمطر والسحب وقوس قـزح خارجـا عـن الوصـف الحضـرى، ولكنه وصف للطبيعة المطرة، التى تختلف عن طبيعة البادية، وهو سبب لـما ترتـب عليـه مـن فعل الإنسان، واهتمامه بهذه الطبيعة، حيث يحول المدن أو القرى إلى حدائـق وجنـات، تزهـو بالورود والرياحين، وهنا يكمن أثـر التحضـر ويظـهر جليـا وصـف عـدىّ للريـاض، حتـى يعـدّ

---

(١) ديوان عدى . ص ١٠٨، ص ١٠٩.

(٢) الغمامة: سحابة بيضاء، ويقال لكلّ ما رق نَضْحُ، ونَضَحَ جلْدهُ بالعرق، والذروة: أعلاه، والزلال: العذاب الذى ينزل فى الحلق من عذوبته. والطلال: جمع طل وهو الندى والمطر القليل. رف النبات: اهتز.

(٣) الديوان . ص ١٧٣ (الصوافير: جمع صافور، وهو مثل المعول، ترنّ: تصوّت، مذكرة: عملت من حديد ذكر ليس بأنيث، قناطر: آزاج وعقود، ملتهق: براق، العقيان: الذهب، قياس: جمع قوس يعنى قوس قزح، الكنهور: السحاب المتراكم، الشؤبوب: وجمعه شآبيب: مطرات شديدات الوقع.

(٤) محمد كرد على – خطط الشام – مكتبة النورى – دمشق – جـ ١ . ص ١٤، ص ١٥.

الوصف المترف أو الوصف الحضرى، غرضًا من الأغراض المتأثرة بالطبيعة وبالحضارة، وإن الاهتمام بالرياض والأزهار والإحساس بجمالها أثر من آثار التحضر والرقى.

ويصف عدىّ روضة قد جاد المطر عليها، حتى ثمرها، فاشتدت خضرتها، حتى ضربت إلى السواد من شدة ريّها.

لِسَرارةٍ حَفَشَ الربيعُ غُثاءَها ... حواءَ يَزْدَرِعُ الغُمَيْرَ ثَرَاها

فتَصَيَّفاها يُصْبحانِ كِلاهُما ... نَثِقُ الجحافلِ من وَكِيفِ نَداها

حتى اصطلى وَهَجَ المقيظِ وخانَهُ ... أبقى مشاربَهُ وشابَ عَثَاها

وثَوَى القَتامُ على الصُوَى وتذكَّرا ... ماءَ المناظرَ قُلْبَها وأضَاها[1]

ويصف الأقحوان فى جانبى الروضة، فيقول:

يرفُّ الأقحوانُ بحافتيها ... بحيث يقابل الجلدُ الرمالا

بأطيب مَوْهِنًا منها إذا ما ... لَوَتْ لضجيعِها القَصَبَ الخِدالا[2]

ويصور عدى الروضة بعد أن سقيت بالأنواء، ويظهر النوار فى فترات الشتاء:

كلُّ وَسْمِيَّةٍ تَحَيَّرَ فيها ... من سيولِ الربيعِ والصيفِ ماءُ

فكَساها مُنَوَّرًا رَشَحَتْهُ ... فَتَراتُ الشتاءِ والأنواءُ

رَهِلٌ زَمَخْرٌ إذا الشمس ذرَّت ... خَضِلَتْ فى ظِلالِهِ الأندَاءُ

يَتَغَنَّى بها على نَغِمٍ بالٍ ... فى ضواحى رياضِها المكّاءُ[3]

---

(١) الديوان . ص ١٠٦ – السرارة: أكرم الوادى وأفضله، حَفَشَ: أسالها وأخرج ما فيها من غثاء. الغثاء: الدمن والسفا وحطام العيدان والزيد. حواء: اشتدت خضرتها حتى ضربت إلى السواد من ريها، يزدرع الغُمَيْر بعد جفوف العشب والغُمَيْر: خضرة تنبت فى أصل اليبس. والثرى: الندى. لثقت ثيابه: إذا بلها المطر. القيظ: شدة الحر. أشباب: يبس وأبيَض. العشا: العشب، وأصل العشا: كثرة الشعير. ثوى: أقام. القتام: الغبار. المناظر: بلد أو موضع. قلبها: يريد قُلُبها فخفف. الأضا: جمع أضاة، وهو الماء المستنقع من سبل أو غيره.

(٢) ديوان عدى . ص ١٠٩ – يرف رفيفًا: إذا اهتز من النعمة. حافتاها: جانباها، الجلد: الغليظ من الأرض، الخدال: الغلاظ الممتلئة لحمًا.

(٣) ديوان عدى . ص ١٥٢ (وسمية: كل روضة نبتت بمطر الوسمى، منور: أى ظهر نوره والنور والنوار والزهر واحد. رَشَحَتْهُ: ربته كما ترشح الناقة ولدها، فَتَراتُ الشتاء: ذهاب برده، رَهِلٌ: ريان. زمخر: ناعم أجوف، ذرت: طلعت، خضلت: نديت وابتلت.

ويشبه جمال ثنايا المرأة بالبرد الذى ساقه الغيث فى البكور، فهو يشبه الأقحوان فى روضة تعاقب عليه المطر يومين، فيقول:

كأن ثنايها نبات سحابة ... حداهُنَّ شؤبوبٌ من الغيث باكر
فهنَّ معًا أو إقحوانٌ بَروضَةٍ ... تعاوَرَا يومين طلٌّ وماطِرٍ
فقلت لها كيف اهتديتِ ودُونَنا ... دَلوكَ وأشراف الجبال القواهر
إذا ألْبَسَ الأرضَ القتامُ تَفَرَّجَتْ ... شماريخُهُ فالآلُ عَنْهُنَّ حاسِرُ
يسامى السحابَ الغرُّ حتى تظلهُ ... غمائِمُ منه فهو أخضَرُ ناضِرُ[1].

***

النماذج عديدة، فى ديوان عدىّ، تؤكد انتباهه لما حوله، وتؤكد إعجابه بظواهر الطبيعة، يصور الشاعر فيها الغيم والبرق والرعد والسحب والأمطار، ولا يظن ظان أن وصف هذه الطبيعة الشامية الممطرة، لا يدخل فى إطار التحضر وأثره، فإن هذه الطبيعة تختلف اختلافا واضحًا عن طبيعة البادية، تلك التى ألفها الشعراء، وأكثر شعراء الحجاز من وصفها، وآثار الأمطار من حدائق وأزهار، ترقى بسلوك الإنسان، وتؤثر فى انتقائه للصور الجمالية، بل تتحكم فى حبه وهواه، وتجعل نفسية الشاعر الذى يحيا وسط الأمطار والغيم، والحدائق والزهر، تختلف وترقى وتتغير بتغير نفسية الإنسان الذىيحيا وسط الجفاف والتصحر.

ومن الطبيعى أن يربط الشاعر عدىّ بن الرِّقاع العاملى رباطا فنيًا بين هذه الظواهر الطبيعية وبين مدحه للخليفة الذى يحبه، فقد يربط بين عطاء الممدوح لأمته وبين الغيث والخير الذى يأتى بعده، وقد يربط بين جمال المرأة وبين فتنة الروض وحسن الزهر، وقد يرمز فى حياته لأمور كثيرة، يكون رمزها الغيم أو البرق أو السحاب المحمل بالخير الوفير.

ومن العجيب أن يكون المضمون حضاريا ويصوغه الشاعر أحيانا فى قالب بدوى، فقد يصف الشاعر الزهر والورد والحدائق والمطر والغيم، ويصوغ هذا كله فى ألفاظ غير لينة أو غير متأثره بالاتجاه الحضارى، أو قد يبتدع صورة فنية قوامها عناصر البداوة وهذا أمر يفرغ البحث له، حين يتصدى لدراسة التصوير الفنى فى شعر عدىّ المتأثر بالاتجاهات الحضارية.

ومما لاشك فيه فإن الطبيعة عند عدىّ لم تكن هذه الصور التى ذكرها البحث آنفًا فحسب بل هناك عناصر كثيرة أخرى صورها الشاعر عدىّ فى ديوانه، وأتى بها من الطبيعة وتدور

(١) ديوان عدى: ص ١٩٧، ص ١٩٨.

حول الحيوان والطير، والنخيل والزرع، ولكنها تميل كل الميل إلى الاتجاه البدوى، حتى تعرف أن الشاعر المتأثر بالاتجاه الحضرى لم يفرغ فراغا تامًا للتحضر فقط بل كان الاتجاه الحضارى اتجاها من الاتجاهات البارزة فى شعره.

وقد يستطيع باحث آخر أن يدرس التيار البدوى فى شعر عدىّ أو الاتجاه البدوى فى شعر عدىّ ولكننا آثرنا أن تكون دراستنا مع هذا الشاعر فى الاتجاه الحضرى، وذلك لأنه أوقع، ولأنه أنسب، ولأنه أحق، ولأنه أفضل وأظهر، فقد نشأ فى المدينة فى دمشق فى الحاضرة لا فى البادية، وحين نقف على عناصر بدوية فى شعره فإن هذا يخالف روح البيئة التى كان يحياها، وطبيعة البيئة التى عاش بها، ولكن الشاعر يريد - أحيانًا - أن يرضى بعض الخلفاء وقليل من الولاة ونفر من النقاد لا يعجبون إلا بالبادية وعناصرها، هذه واحدة، والثانية أن النقاد لا يتأثرون أحيانا أو يفضلون شعر شاعر إلا إذا كانت الروح التراثية مسيطرة عليه، وغالبة فيه، والثالثة أن الشاعر يريد أن يؤكد جدارته وأن يثبت مقدرته، وسيطرته على أدوات اللغة التراثية، فيصور الكثير من مظاهر البداوة، بيد أن الأمر فى شعر عدىّ لم تكن البداوة ظاهرة فى مضامين شعره قدر ظهورها فى صياغته وتشكيله وتصويره، والرابعة أن كثيرًا من المقدمات التى تميل إلى وصف الطلل وتصوير ديار المحبوبة اعتمدت فى عناصرها على العناصر البدوية كما أن صورة الرحلة وهو فى طريقه إلى الممدوح غلب عليها الاتجاه البدوى.

إن تصوير الطبيعة المطرة الشامية الجميلة أثر من آثار التحضر لما يترتب عليه من خضرة وحدائق ولما يعود عليه من سلوك راق يأخذه الإنسان دستورا له فى بيئة الشام.

***

(ب) العمـــران

غرض آخر، من أغراض شعر عدىّ، تأثر بالتيار الحضارى، يأتى بعد وصف الطبيعة، وإن كان الغرض الأول فطرى إلهى فى تكوينه، فإن الغرض الثانى بشرى صناعى فى تركيبه، ولما كان المجتمع الأموى فى دمشق وغير دمشق بدأت تظهر عليه آثار الترف والتحضر متمثلة فى التقدم العمرانى، ولما كان الشاعر عدىّ واعيا لما يدور حوله، دقيقا فى وصف ما يشاهده، لم يخل شعره من وصف ما بناه الإنسان، وما شيده سكان المكان، وما يعرف بالعمران، بناء القصور، بناء المصانع، بناء الجسور، بناء القناطر، التفنن فى تشييد المساجد ونقوشها وزخرفتها، هدم الكنائس وإقامة المعابد، وأمور أخرى كثيرة بدأ المجتمع الأموى يهتم بها، وبدا أثر ذلك فى شعر شعراء هذا العصر، ولم ينس عدىّ نصيبه فى نقل ما شاهد، وتصوير

ما شيدوه، ولاسيما وإن كان البانى أو المهتم بالعمران الوليد بن عبد الملك ممدوحه المفضل وخليفته المحبوب.

وربما كان اهتمام الشاعر بوصف العمران باعتباره أثرا من آثار التحضر والتقدم والترف، يأتى فى إطار اهتمام الشاعر بالإشادة بأمجاد ممدوحه، ومناصرته، والترويج لقضاياه، وقد يدخل هذا الأمر أيضا فى النهج السياسى الذى يجعل من الشاعر شاعرًا من شعراء بنى أمية السياسيين المؤيدين لسياستهم والمناضلين من أجل نصرة دعوتهم، ومن الواضح أن الشاعر لم يجعل قصيدة كاملة فى وصف أثر من آثار التحضر العمرانى، بل جاءت هذه اللوحات والصور فى إطار مدائحه وأناشيده السياسية.

وقد أفاد الشاعر بوصفه وثائق اجتماعية، غاية فى الأهمية، لعلماء الاجتماع، والمهتمين بالعمارة الإسلامية، كما أضاف بوصفه لوحات حية، زاخرة بالجمال والحيوية، تجعل من هذا اللون فنا مستقلاً راقيًا خاصًا وهو فن وصف القصور أو العمران أو وصف الديارات، وقد تفنن نفر غيرقليل من الشعراء بعد عدى فى وصف العمارة الإسلامية فى المشرق أو فى المغرب ومنهم البحترى وقصور المتوكل وغيره من شعراء الأندلس حتى أضحى وصف العمران المتحضر من أحدث أغراض الشعر وأرقاها وأكثرها تأثرًا بالتيارات المتحضرة الوافدة والعربية.

والعمران يختص بتصوير التمدين والتحضر، وتصوير مظاهر التأثر بتقاليد الحضارات الأخرى، والتعبير عن الرغبة فى بناء مجتمع يواكب المجتمعات المتحضرة، ويظهر العمران فى التشييد والبناء، وفى إقامة القناطر والجسور وبناء المصانع، وفى تشييد القصور وزخارف الأبنية، وتصوير النقوش والصور والأقبية.

وكان عدىّ فى وصفه يلاحق هذا التطور ويواكبه، وفى بعض شعره إشارات إلى البناء والعمران، وإلى إقامة المساجد والكنائس، وإلى إقامة الجسور والقناطر، حيث أن عهد الوليد كان عهد بناء وعمران، كثرت فيه الأبنية والتشييد والزخرفة والنقش.

ويروى التاريخ أن الوليد بن عبد الملك قد بنى المسجد الأموى بدمشق، وأنفق عليه أموالاً عظيمة وابتدأه سنة ٨٨ هجرية كما يقول اليعقوبى فى تاريخه[١]، كما وسّع الوليد مسجد الرسول ﷺ وبعث إلى ملك الروم يعينه بمائة ألف مثقال ذهب، ومائة عامل، وأربعين حمل فسيفساء، وفرغ من بنائه سنة ٩٠ هجرية.

ويضيف اليعقوبى أن الوليد «أول من عمل البيمارستان للمرضى، ودارًا للضيافة»[٢].

---

(١) تاريخ اليعقوبى – أحمد بن اليعقوب – دار صادر – بيروت – ١٩٦٠ . ص ٢٨٤.

(٢) تاريخ اليعقوبى . ص ٢٩٠.

ويسجل عدىّ فى شعره، كل ما اتصل بأعمال جديدة من حفر جداول أو قنوات أو بناء قصور، واتخاذ مساجد أو احتفال بأعياد ومهرجانات، وحتى ما ابتدعه الحجاج من المحامل والسفن المقّيرة، نظمه الشعراء فى أشعارهم، وكأنما لا يوجد خيط فى نسيج الحياة العربية للعصر الأموى إلا وحاكه الشعراء فى شعرهم كما يروى د. شوقى ضيف[1] حتى اللعب الجديدة كلعبة الشطرنج والبياذق.

والقارئ ديوان عدىّ، باحثًا عن شعره فى العمران، يفجؤه قلته وندرته، وعدم مسايرته للرقى العمرانى، والتقدم الحضارى الذى أشاد التاريخ به، وشهد للوليد المؤرخون وكأن عدى لم يفصّل الأمر تفصيلا، بل أشار إليه إشارات قليلة، إشارة إلى الحدث، وإلى ما قام به الخليفة الوليد وابنه عمر، ولم يصف ما شيده الوليد أو ما عمره عمر، عدى يذكر ما فعلوه، ولا يصف ما فُعِل.

يقول فى قصيدة يمدح فيها عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان[2].

قَوْمٌ هُمُ ارتَضَوْا الحجارةَ قَبْلَنَا ... فتأثّلوا بمصانعٍ وبناءِ
فإذا تناءى القومُ أكثرَ منهم ... عددًا وماذا العيشُ غيرَ بلاءِ
أمَمٌ تَدَخَّلَتِ الحتوف عليهم ... أبوابَهم وكَشَفْنَ كلَّ غِطاءِ
فإذا الذى فى حصنِهِ مُتَحَرِّزٌ ... منهم كآخر مُصْحَرٍ بفضاءِ[3]
وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ... ضنًّا بهِ نَظَرى إلى الأمراءِ
عمرُ الذى جَمَعَ المكارمَ كلَّها ... وابنُ الخليفةِ أفضلُ الخلفاءِ
والأصلُ ينبتُ فَرْعُه مُتناثِلاً ... والكَفُّ ليسَ بَنانُها بسواءِ[4]

ويشير عدى إلى بناء المساجد وهدم الكنائس فى عصر الوليد؛ فيقول[5]:

فأنْتَ غَيْثٌ بإذْنِ اللّهِ أرْسَلَهُ ... للمسلمينَ حَيًا والأرض عُمْرانا
فلا تَرَى نائِلاً يَجْرى كنائِلِهِ ... ولا كبُنْيانِهِ فى الأرض بُنيانا
بَنَى مساجِدَ للإسلامِ جامِعَةً ... ولم يَدَع بَيتَ إشراكٍ كما كانا
كَنيسَةً حَدَرَتْ عادٌ حِجارَتَها ... من الجبالِ التى شَرْقِىَّ لُبْنانا

---

(١) د. شوقى ضيف – التطور والتجديد فى الشعر الأموى – ص ٣٣٦.
(٢) ديوان عدى . ص ١٦٢ – المقطوعة رقم ١٤.
(٣) يقال: أصحر إذا برز ونزل الصحراء، والفضاء المتسع من الأرض الذى لا جبال فيه.
(٤) متناثلاً: أى: بعضه أطول من بعض.
(٥) ديوان عدى . ص ١٧٢.

بَنَى مساجِدَ للإســـــلامِ جامِعَةً ولم يَدَع بَيتَ إشـــراكٍ كما كانا
كَنيسَةً حَدَرَتْ عـــادٌ حِجارَتَها من الجبال التـــى شَرْقِيَّ لُبْنانـــا
من كـــلِّ أبْهَمَ يكسُو الثلجُ ذِرْوَتَهُ حتى فشا وبدا فى الصيف عُرْيانا
صَعْبُ الشواهِقِ مُغْبَرٌّ بناكِبِـــهِ ترى به المُعْفَراتِ العُصْـــمَ أخْدانا
بـــه كُلُومُ صَـــوافيرٍ مُذكَّرَةٍ تَرُنُّ منه ضـــواحى الصَّخْرِ إرْنانا
بَنَـــوا قَناطِرَهُ حتى إذا جعلوا له من الجندَل العادىِّ أركانـــا
فأحْسَـــنَ الصَّنْعَ بنَّاءوكَ وارتفعوا فوق الذين تَغَنَّوْا فيه أزْمانـــا
كَسَـــوْهُ مِن عمل الصَّنّاع مُلْتَهِقًا يكاد يختَطِفُ الأبصـــارَ عِقْيانا[1]

وكما يبدو فى النصين السابقين تصوير عدىّ للمعمر ولا يصورّ العمران، يشير عـدى إلى قدرة الوليد ومن بعده عمر على البناء والعمران والتشييد، ولا يصف ما شيدوه.

والملحـوظ أن إشـارات عـدى إلى البنـاء وإلى العمـران قليلـة فـى شـعره، وهـذا أمـر يدعـو إلى التساؤل، خاصة إذا علمنا أن عهد الوليد هو عهد العمران.

ويزول هذا التساؤل عندما نعرف أن مهمة الشاعر عدىّ بن الرِّقاع التى رسمها لنفسـه كـانت مهمة سياسية، مهمة الإحسان فى مخاطبة الخلفـاء، والـترجيح لمبـادئ المذهـب الأمـوى، إنـه صوت من أصوات المروانيين.

لم يهتم عدى بالوصف المادى الحضارى من حوله، ولم يفرغ له، فقـد كـان ذلـك اللـون مـن الوصف جديدًا على الشعراء، وقد أفاض الشعراء فى وصف التقدم العمرانى المتحضر فى العصـر العباسى، ولو كانوا فى زمن الوليد لنظموا المطـولات فـى البنـاء والعمـران، وكـان اهتمـام عـدىّ بالوليد الإنسان أكثر من اهتمامه بالبناء والعمران.

والشاعر عدىّ فى إشاراته القليلة لمفردات الحياة الحضارية خاصة ما يتعلـق منـها بالجـانب العمرانى كان هدفه سياسيًا أيضًا مع كثرة ما شيّد فى عصره، فقد جاء وصفه للعمران والبناء من خلال مدائحه، وفى إطار إشادته بالوليد وبسياسته، يشير إلى البناء وإلى الصناع، وعرف شعراء العصر العباسى بالوصف الحضرى أمثال كشاجم وما عرف عن طرائف كشاجم وهى مـا اختـص كشاجم بوصفه من أدوات الترف والحضارة، ولم يسبقه إلى ذلك غيره من الشعراء، وغير كشاجم ممن اهتموا بتصوير القصور والآلات والأدوات والملابس والزهور والشطرنج والشمعة، وغيرها مـن

(١) أبهم: جبل أصم، ذروته: أعـلاه، المعفرات مـن الوعـول: ذوات الأعفار، وهـى أولادهـا، الواحـد: عفـر، وأخدانا: مصطحبات، ويروى: أحْدانا، أى: متفردات. ملتهق: براق، وكذلك المتألق، العقيان: الذهب.

مفردات الحياة الاجتماعية الجديدة، ولو أراد أن يسجل عـدىّ كـل صنـع الوليـد فـى العمـران والمجتمع لكان لشعره وظيفة أخرى تفيد المؤرخ والباحث وعالم الاجتماع، ولكنه أفاد السياسـى عدة وثائق، يغلب عليها الطابع الخطابى للتأكيد على النظام المروانى.

والحدث الشهير الذى روى عن تعصب الوليد على المسيحيين – كمـا ظـن البعـض – عندمـا حوّل كنيسة يوحنا فى دمشق إلى الجامع الأموى المشهور، لم يحظ إلا بأبيـات قليلـة فـى شـعر عدىّ، وكان هذا الحدث كما يروى د. شوقى ضيف من الأسـباب التـى بـاعدت بـين الأخطـل وبين القصر الأموى بدمشق وأن يتقدم شعراء آخرون مثل عدىّ بن الرِّقـاع العـاملى الـذى أصبـح شاعر الوليد الرسمى، وانزوى الأخطل وانزوت معه أشعاره[1].

وكان من المتوقع أن تتغير قصيدة الوصف عند عدىّ، لتغير الحياة من حوله، ولكنها جـرت فى معظم الأحوال على النمط التقليدى والأسلوب القديم، مع أن الحياة قـد اختلفـت مـن حـول الشاعر، ولكن النموذج القديم فى الصياغة والبناء لا يزال هو المثال، فقد صار شعر البداوة يغلب عليهم لميلهم إلى العروبة، حتى كانت أعطياتهم أكثرها الإبل أخذًا بمذاهب العرب وبداوتهم.

(جـ) الترف ومظاهر الحياة الاجتماعية

جانب آخر من جوانب الوصف المتأثر بالتغـير الحضـارى، وهـو جـانب الـترف الـذى سـاد معظم مظاهر الحياة الاجتماعية، فى عصر بنـى أميـة، وانتبـه الشـاعر إلى ذلـك، وصـور بعـض مظاهر الترف فى بعض شعره.

ويؤكد التاريخ الاجتماعى تلك الطفرة الهائلة فى الـترف والرفاهيـة، التـى عاشـها المجتمـع العربى فى عصـر بنـى أميـة، ومـن المعـروف أن الشـام كـانت البيئـة الأولى المتـأثرة بالتيـارات المتحضرة، وقصور الخلفاء والولاة وأنماط معيشتهم تشهد بهذا اللون من الحياة المعروفة بالـترف والرفاهية، وربما يرجع ذلك إلى الراحة الواضحة للجيوش العربية بعد الفتوحـات والانتصـارات ونشر الإسلام واللغة العربية، وكثرة ما أنعم الله به عليهم من أموال وخيرات، وتفتح الأعين إلى بعض مظاهر الحياة المترفة فى المجتمعات المفتوحة، أو بعـض مـا أدخلـه الوافـدون مـن أنمـاط حياتية تزخر بالترف والرفاهية، بل عرف المجتمع فى بعض أوساطه بعض مظاهر اللـهو التـى لم يكن للعرب بها عهد ساعده فى ذلك الخلفاء و لولاة والقـادة، وكـثرة الأمـوال، والحضـارات المجاورة، ومجهودات الوافدين على المجتمع العربى فـى محـاولات تطويـر حيـاة العـرب مـن البداوة إلى التحضر.

---

(١) د. شوقى ضيف – التطور والتجديد فى الشعر الأموى . ص ١٤١، ص ١٤٢.

والشاعر عدى يحب هذا المجتمع الذى بدأ فى التطور، ثم زاد فى لهوه ومجونه وفى ترفه ورفاهيته فى العصر العباسى وتؤكد مصادر التاريخ ومراجعه أنماط الحياة اللاهية ونماذج من الإسراف المبالغ فيه الذى كان يعيشه المجتمع العباسى، وقد بدأت بوادر هذا الترف وهذه الرفاهية فى حياة خلفاء بنى أمية.

وصوَّر عدىّ بعض هذه المظاهر، ولكنه لم يكن يقصدها قصدا، ولكنها جاءت فى ثنايا نظمه، وكأنه قد فرَّغ نفسه وشعره لخدمة القضية السياسية، وبدأت القضايا الاجتماعية الأخرى تظهر من خلال شرحه ومدحه وتدعيمه للقضية السياسية الأموية، ومحاولة دعمها وتثبيت أركانها، ولكنه لم يكن من شعراء الوصف، الذين انقطعوا له، والذين أفردوا قصائد لوصف وتصوير مظاهر الحياة الاجتماعية.

ولما فرغ الأمويون إلى أنفسهم، تفننوا فى أسباب الترف فى حياتهم، وعمدوا إلى اللهو فى كثير من مظاهر معيشتهم، فقد تدفقت أموال الفتوح فى حجور المروانيين، وأصبح المجتمع يسعد بحياته، وكثرت الروايات التى تصور خلو المجتمع من المحتاجين، بعد أن اهتم الخلفاء بأحوال الرعية وأمورها.

هذا سبب رئيسى، يؤدى إلى استمتاع المجتمع بحياته، وازدياد تيار الترف الذى تحول فيما بعد إلى لهو ومجون، وهو الاستقرار الاقتصادى.

وعامل آخر أسهم فى ترف الأمة ورفاهيتها وهو تأثر العرب فى تحضرهم بآثار الحضارات الأخرى كالحضارة الرومانية والحضارة الفارسية والحضارة اليونانية وغيرها، ونقلوا عنها القنص أو الصيد بالطيور وهو ما عرف فى الشعر العربى فيما بعد بفن الطرديات، وكذا الصيد بالحيوان، كما نقلوا الغناء وعرفوا الجوارى والقيان، واهتموا بالتحضر فى ملابسهم، وتفننوا فى زركشتها، وفى تطريزها، وكتابة أشعار الغزل على أطرافها، وتفننوا كذلك فى طرائق حياتهم وفى أكلهم وشرابهم.

وقد أشار عدىّ فى بعض شعره إلى الصيد، وذكر الصقور، والقطا، وقد اقتبس العرب عن الحضارتين، الصيد والقنص، واتخذوا الجوارح من الطير، وهى الباز والشاهين والعقاب والصقر، يعلمونها صيد الطير، واقتنى العرب الفهود والكلاب لصيد الغزلان وحمر الوحش[1].

ويعود اهتمام الخلفاء بالصيد إلى أسباب تتعلق بأمور الحكم والسلطان، أشار إليها الشاعر الكاتب «كشاجم» فى رسالته فى البيزرة ومنها: «أن يعلم ذوو الحاجة والمظلوم ومن لا يلحن

---

(١) الخربوطلى - الحضارة العربية . ص ١٥٦.

بحجته فى مجلس الملك من الفصحاء والرؤساء، فيعلم بانفراد الملك فى متصيده فيلقاه خاليا بحاجته وينهى إليه ضلامته»[1].

وكان يزيد بن معاوية يعتبر الصيد لونا من ألوان اللهو، وقيل أنه كان يلبس كلاب الصيد أساورًا من ذهب، وَيَهبُ كُلَّ كلب عبدًا يتفرغ على خدمته.

وفى مروج الذهب للمسعودى أن يزيد أول من حمل الفهود على الخيل[2]. وقيل أن هشام بن عبد الملك من أظهر خلفاء بنى أمية حبًا للصيد.

وصاحب الجمهرة فى علوم البيزرة يصف حفل صيد اشترك فيه هشام فيقول: «وذكروا أن هشام بن عبد الملك خرج ذات يوم للقنص فلما توسط مكان الصيد اختلط الناس بعضهم ببعض، وأنكر فى حومة الصيد الأخ أخاه، والوالد ولده»[3].

ولم يصلنا شعر عدىّ فى الصيد أو رحلاته، ولكنه يذكر الصقر ولا يصفه، ويشبّه أحوال البشر به، كقوله[4]:

والناسُ منهم نافِذٌ متقلِّبٌ ... وتَقَلُّبٍ فى الأرض غيرُ غَناءِ
كالصَّقْرِ يعلمُ أنَّ آخرَ عُمْرِهِ ... رَهْنٌ له بإقامةٍ وثِواءِ
فلذاك أحجى أنْ يُنيلَكَ سائلاً ... أم أنْ يُوَدِّعَ عندكَ يومَ لقاءِ[5]

ويذكر عدىّ القطا فى أكثر من موضع فى شعره، ومنه قوله[6]:

جُوَنِيَّةً من قَطَا الصَّوّان مَسْكَنُها ... جَفاجِفٌ تُنْبِتُ القَفْعَاءَ والبَقَلا
باضَتْ بحَزْمٍ سُبَيْعٍ أو بمَرْفَضَةٍ ... ذى الشِّيحِ حيث تَلاقى التَّلْعُ فانْسَجَلا
يأذى فينفضُ نَفْضَ العِرِّ فَرْوَتَهُ ... عن صَفْحَتَيْهِ وضاحِي مَتْنِهِ البَلَلا
يبيتُ يحفرُ وَجْهَ الأرض مجتَنِحًا ... إذا اطمأنَّ قليلاً قامَ فانتَقَلا
تحسّرت عِقَّة عنه فأنْسَلَها ... واجتابَ أخرى جَديدًا بعد ما ابتقلا[7]

---

(١) كشاجم – الصقر والصيد عند العرب – رسالة نادرة لكشاجم – كتاب البيزرة – محمد عيسى صالحية – الكويت – ١٩٨٥ – نشر كاظمة . ص ٣٥.

(٢) المسعودى – مروج الذهب: ١٥٦/٥.

(٣) الجمهرة فى علوم البيزرة: ص ٤١.

(٤) ديوان عدى. ص ١٦٤ .

(٥) ديوان عدى . ص ١٦٤ ، ورعته: كفئته يوم لقاءِ.

(٦) ديوان عدى . ص ٧٨ (جونية: قطاة، الصّوان: موضع كثير الحجارة، الجفاجف: جمع جفجف، وهو مستوى من الأرض فى غلظ، القفعاء: نبت من البقل، الحزم: الغليظ من الأرض، يأذى: يتأذى، صفحتيه: جانباه، وضاحى مَتْنِهِ: ما برز منه، الغرّ: الذى لا تجربة له.

(٧) تحسّرت: انكشفت عنه وسقطت، العقة: هى شَعْرُه القديم الذى ولد عليه، أنسلها: ألقاها، اجتاب: لبس أخرى، ابتقل، وتَبَقَّلَ: رعى البَقْل.

ويصف عديّ موضع بيض القطا فى أثناء رحلته؛ فيقول:

كأنَّ أفاحِيصَ القَطَا حيثُ عاجَها ... معرَّس مثوىً مِنْ كَرَى الليل نُيَّمِ[1]

ويصف أولاد القطا عندما ينكمشون من البرد أو من الخوف؛ فيقول:

تُرْوى لأزْغَبَ صَيْفىٍّ بمَهْلَكَةٍ ... إذا تكنَّشَ أولادُ القَطَا خَدَلا

تنوشُ من صُوَّةِ الأنهار يُطعمُهُ ... من التهاويل والزُّبَّادِ ما أكَلا

تضُمُّهُ لجناحَيْها وجؤجؤها ... ضَمَّ الفتاةِ الصبىَّ المُغْيلَ الصَّغِلا

تستوردُ السِّرَّ أحيانًا إذا ظمِئَتْ ... والضَّحْلَ أسفل من جرزانه الغَلَلا

مُوَلَّعٌ بسوادٍ فى أسافِلِهِ ... منه احتذى وبلونٍ مثلِهِ اكتحلا[2]

وعديّ ليس من شعراء الطرديات، ولم يذكر الصقر أو القطا إلا حين يعقد مقارنة، بينهما وبين أمور أخرى فى الحياة، وألفاظ عديّ فى صورة الصقر والقطا، من معجم البداوة، وكذا معظم ألفاظ الحيوان والطير، بفعل البيئة التى يحيون بها.

ومن مظاهر الترف والتحضر فى المجتمع الأموى، ظاهرة الغناء، والاستمتاع به، وقد مرّ بعض الحديث عنه عند ذكر المرأة المتحضرة، والغناء فى عصر بنى أمية معروف، وله دوافعه وبواعثه، وله معالمه ومظاهره، وله نصوصه أو أصواته المنظومة، وهى من أجمل ما نظم الشعراء فى المرأة والغزل، وله مطربوه ومطرباته، وكانت فتوحات الوليد مصدرًا لجلب الجوارى، ويذكر الدينوري والأصفهاني والطبري أن الجوارى كانت ترد على الولاة فيفرقونها فى وجوه الناس، ويمدح الخليفة حين يهب الجوارى خاصة القينات؛ فيقول عديّ:

وإذا وَدِدْتَ فإنَّ وُدَّكَ نافِعٌ ... ومن انتطحتَ فليسَ منكَ بسالِمِ

الواهِبُ القَيْناتِ أمْثالَ الدُّمَى ... مُتَسَجِّياتِ ظِلال أسْوَدَ فَاحِمِ

والخيلُ والنَّعَمُ المبينُ وطالَمَا ... أعطى الجزيلَ وليس ذاك بعاتِمِ[3]

والغناء ليس غرضًا من أغراض شعر عديّ، والمرأة المغنية لم تأخذ حظها فى اهتمامه، والغناء وإن كان مظهرا من مظاهر التحضر غير أن عديّ يصفه وصفا عابرًا، يدخل فى إطار إعجابه بالحاكم، وبالوليد بن عبد الملك، فهو الذى يهب لمن يحبه القينات.

---

(١) الديوان . ص ١٣٢ (افحوص القطا: موضع البيض، عاجها: عَطفها، المعرّس: الموضع الذى نزلوا فيه، مثوى: مقام، الكرى: النعاس.

(٢) ديوان عدى . ص ٢٦٣.

(٣) ديوان عدى . ص ١٢٧ (كل أمة قينة، مغنية كانت أو غير مغنية، الدمى: جمع دمية وهى الصورة، عاتم: بطيء.

ويُعد العلم والفخر بالعلم والتباهى به، من أبرز مظاهر التحضر فى عصر المروانيين، فقد اهتم الخلفاء بالثقافة والتعلم، واهتموا بالعلوم الدينية وحفظ القرآن، واهتموا بفروع الثقافة العربية الأصيلة. وازداد عدد المتعلمين، وظهر فى المساجد الحلقات التعليمية، وعرف معلم الصبيان.

وروى خبر عن الوليد ومعلم الصبيان والجارية، ورد ذكره فى بدايات هذا البحث، واشترط الوليد حفظ القرآن شرطا لمن رغب فى الزواج أو رغب فى مصاهرته كما ذكرت الأخبار.

وقد نقل ابن قتيبة فى عيون الأخبار وصايا بعضهم من معلمى العصر الأموى[1] ، وبدأت حركة النقل والترجمة فى ظل الأمويين، وأول من نقل خالد بن يزيد[2] .

وفى الفهرست لابن النديم أن من نقل الكيمياء رجل اسمه أسطفان، وأن سالمًا كاتب هشام نقل بعض رسائل أرسطو، وذكر ابن النديم فى الفهرست أسماء كتب فى موضوعات مختلفة، دونت فى هذا العصر ويفخر عدىّ بعلمه ويجعل الإفادة من العلم من مظاهر لذة المعيشة والاستمتاع بالحياة.

ولقد أصبتُ من المعيشةِ لَذَّةً ... ولقيتُ من شَظَفِ الخطوبِ شِدادَها
فسَتَرْتُ عَيْبَ معيشتى بتكَرُّمٍ ... وأتيتُ فى سَعَةِ النعيمِ سَدادَها
وبقيتُ حتّى ما أسائلُ عالمًا ... عن علمِ واحدةٍ لكى ازدادَها[3]

وعندما يهجر عدىّ وصل الغوانى، يهجرنه ويفضلن ملامسة الشباب عن العلماء:

أعرضن حين فقدن عزب بطالتى ... ونسين حسن خلائقى وتمائمى
فإذا ملامسة الشباب ولهوه ... منهن لا فقه الفقيه العالم[4]

ويشير عدىّ إلى الكُتّاب الأعاجم فى قوله:

كأنَّ قُرادَىْ نَحْرِهِ طَبَعَتْهُما ... بطينٍ من الجُولان كُتّابُ أعْجَمِ[5]

ويستمر عدىّ فى وصفه للعلم، وتكريم الخلفاء للعلماء، وتكريم عمر بن عبد العزيز للكتّاب، وتشجيع الحكام للكتابة.

---

(١) ابن قتيبة – عيون الأخبار . ص ٦٦/٢.

(٢) أنيس المقدسى – أمراء الشعر العربى – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٧٨ – السادسة عشرة . ص ٣٧.

(٣) ديوان عدى . ص ٩٠ ، ص ٩١ (الشظف: الشدة، الخطوب: الأمور، السداد: القصد).

(٤) ديوان عدى . ص ١٢٣ ، ص ١٢٤.

(٥) ديوان عدى . ص ١٣٣ (القراد: حلمة الثدى، طبعتهما: أى ختمتهما، الجولان: بالشام، أعجم: ملك ملوك الأعاجم).

ومن الأمور التى صورها عدىّ فى شعره والمتأثرة بالتيار الحضارى وصفه للملبس وزى الرجل ولباس المرأة، دلالة على الترف والتحضر، فالمرأة تلبس التاج، وتتزين بالإكليل، وترتدى الملابس الثمينة الغالية الرقيقة الشفافة، وهى تخفف من ملابسها فى فراشها، وقد ورد ذلك كله فى مواضع متفرقة من ديوانه، منها ما ذكره فى صنف من ثياب المرأة يعرف بالقبطرية، فيقول:

كأنَّ زُرُورَ القُبْطُرِيَةِ عُلِّقَتْ بنادِكُها منه بجِذْعٍ مُقَوَّمِ [1]

ويذكر عدى البرود والقبطية والربط المرقم، فى قوله:

وباتَتْ تُنادى أمُّ جَعْدَةَ زَوْجَها إليها وما تَدْعو حَميمًا ولا حَمَا
فلما انجلى عنها الصَّريمُ وأبْصَرَتْ هجانًا يُسامى الليلَ أبيضَ مُعْلَما
غَدَتْ فى قَميصَيْها فَضَاقَ نَصِيفُها وما ألْبَسَتْهُ الرأسَ إلاّ تَعَمَّمَا
جَمَعْنا بسَبْيٍ جاءنا من نسائهم بُرودًا وقبْطِيًا وربطًا مُرَقَّما [2]

والقبطية ثياب من كتّان بيض رقاق، جمع قبط وقباطر [3] والبرود كساء مخطط يلتحف به، وجمع أبراد وأبرد وبرودة، والربط ثوب لين رقيق، والرائطة الملاءة كلها من نَسج واحد.

ويصور عدى السمط والسموط التى تلبسه المرأة، وهو مرصع من اللؤلؤ والخرز، يعبر عن ترف المرأة وتحضرها، فيقول [4]:

دار مكتومةَ التى فَتَنَتْنِي بخَبال فَمَنْ لقَلْبٍ سَقِيمِ
جمعتنا بها نوى الحىّ حَوْلاً نتلهى بسِرِّنا المكتومِ
دائبًا لا هِيًا تخوَّنُ حِلْمى بثنايا غُرٍّ وَوَجْهٍ وَسِيمِ
وبأنّ النَّصِيفَ أسْفَلَ منه رَجُلٌ واردٌ مُبينُ النعيمِ
وسَمُوط تستنُّ فوق التراقى من جُمانٍ ولؤلؤ منظومِ
تَجْتَلِى ظُلْمَةَ الخِباءِ كما ينكشفُ الصبحُ عن مهاةِ الصَّريمِ [5]

---

(١) ديوان عدىّ . ص ١٣٣ (أزرار وزرور، والقُبطرية: ضرب من الثياب، بنادكها: عراها ولا واحد للبنادك. كأنّ ثيابه على جذع من طوله.

(٢) ديوان عدى . ص ١٩٦.

(٣) مادة قبط -- المعجم الوسيط.

(٤) ديوان عدى . ص ١٣٨ (تخونّ: تنقص، غرّ: بيض، الوسيم والقسيم: الجميلان).

(٥) النصيف: الخمار، شعر رجُل ورجل، وهو بين الجعد والبسط، وارد: طويل ورد المتنين، سموط: جمع سمط، وهو النظم من اللؤلؤ والخَرَز، تستنُّ: تدهب وتجيئ، المهاة: بقرة الوحش، الصَّريم: جمع صريمة وهى قِطعٌ من الرمل تَنْقَطِعُ من معظمه، والصَّريم: الليل، قال سبحانه وتعالى: «فأصبحت كالصَّريم» أى كالليل.

تأثر عدى بالحضارة، غير أنه لم ينس الصحراء، ولم ينس البادية، ويمكن أن تجمل أبرز السمات الفنية لصورة الوصف فى شعر عدى الحضارى فى أهم النقاط التالية:

– جمع عدىّ فى وصفه بين العناصر القديمة والعناصر الجديدة، وحاول الملاءمة بين التيارين فى بعض شعره، وإن طغى جانب الصحراء والبادية فى الوصف – فى الشكل والصياغة – على الجانب الحضرى، ولكن آثار التحضر واضحة وظاهرة.

– تعددت مظاهر الترف والتحضر، ولكن الشاعر انشغل بالجانب السياسى أكثر من انشغاله بوصف البرك والقصور وزخارفها، وصار الاهتمام بوصف أمور الحضارة فى أشعار العباسيين – فيما بعد – خاصة الشاعر كشاجم المعروف بطرائفه.

– اشتمل وصف عدىّ على تصوير مظاهر الطبيعة الحية التى تعبر عن الشام وبيئته من مطر وغيم وغيث وبرق ورياض وأزهار.

– امتد وصف عدىّ الحضارى إلى تصوير البناء والعمران فى عهد الوليد وتصوير الجسور والقناطر ولكنه لم يفصل فيها.

– اهتم عدىّ فى تصويره بالجانب المعنوى أكثر من اهتمامه بالجانب المادى.

– اشتمل وصف عدىّ الحضارى على أمور الحياة الاجتماعية المتحضرة ومنها الجوارى المغنيات والملابس والفخر بالعلم.

– جاء الوصف غرضًا من أغراض القصيدة المتعددة: لم يفرد له نص كامل.

– ربط الشاعر بين مظاهر الطبيعة وكرم الممدوح وجمال المرأة، فربط بين الممدوح والغيث والمرأة والبدر.

– طغت العناصر القديمة على العناصر الجديدة، خاصة فى مطالع القصائد، واختفى الوصف الحضارى بعض الشىء، كما ازدوجت المعانى الجديدة مع القديمة ازدواجًا يتفاوت من قصيدة إلى أخرى.

– الشاعر فى وصفه الحضارى يتخفف من الألفاظ الصعبة، وفى وصفه التقليدى يلتزم بها، وعلى كلٍّ فقد بدا أثر التحضر فى وصف عدىّ كما سيبدو فى الجزء القادم فى أخلاقيات عدى وتصويره للعواطف الإنسانية.

(د) المبادئ الإنسانية والحضارة

مما لاشك فيه فإن الخُلق التى يعتنقها الإنسان، والسلوك الذى يؤمن به ويرتضيه شعارًا له فى حياته وفى معاملاته يرجع فى الجزء الأعظم إلى مدى تحضره وإلى درجة رقيه وإلى الذوق العام الذى يسيطر عليه فى فكره وفى نظرته إلى الحياة وفى تعامله مع الآخرين.

والشاعر إنسان ذو مشاعر أكثر رقة وعمقا من غيره من غير الشعراء، يؤمن ويمجد، يحب ويكره، يدافع ويرفض، يناضل ويعارض، تغلب على مشاعره إنسانيات ذات طابع خاص آمن بها من خلال رحلة البشر مع الحياة والإنسانية.

والقارئ فى الشعر البدوى يرى غير ما يراه القارئ فى الشعر الحضرى، وللبداوة قاموسها الأخلاقى، وللحضارة معجمها الإنسانى، والطبيعة هى التى تملى على الإنسان ما يعتقد به من مبادئ إنسانية، حياة الشظف والخشونة فى البادية تجبر الإنسان على قيم خاصة كالكرم والنجدة والشهامة وإغاثة الملهوف والحمية والغيرة وغيرها، وحياة الترف والرفاهية والنعيم تشكل مبادئ الإنسان حسب الهوى والتنعم والتلذذ والتغزل والعلم والثقافة والعمران والزهور والحدائق والغناء والنساء وأدوات الصيد والطرد وغيرها.

ولذلك فإن نظرة عدىّ بن الرِّقاع العاملى إلى الحياة، وفلسفته فيها، وإيمانه ببعض الحكم وصياغته لبعضها لاشك فإنه يعد أثرًا من آثار البيئة التى عاشها والحضارات التى أثرت فيها وشعر بها.

يظهر أثر التحضر فى أزهى صوره فى أخلاقيات البشر وتعامله الإنسانى، ويحكم على المرء من تعامله بالهمجية أو التحضر، وتحضر عدىّ بن الرقاع له تأثير بارز فى أخلاقياته.

وتبدو هذه الأخلاقيات الحضرية فى مجموعة المبادئ الإنسانية التى حمل الشاعر عدىّ لواء الترويج لها، فظل ينادى بها، ويمدح من يتحلون بها، ولا يقصد من ذلك أن البداوة تخلو من هذه المبادئ الإنسانية، وأن التحضر هو مصدر هذه القيم والمبادئ الإنسانية.

والحقيقة أن أهل البادية لهم من الأخلاق العالية ما يجعلهم يفخرون بها، وللتحضر سماته الأخلاقية – أيضًا – التى قد تتفق مع رجل الصحراء، وقد تختلف معه أيضا لاختلاف وجهة النظر إلى الأمور، وفلسفة الإنسان فى الحياة تبعا لظروف البيئة المتغايرة.

ومن الطبيعى أن هناك مبادئ إنسانية كثيرة يتفق عليها الإنسان عامة فى البادية أو فى الحاضرة، وكان للإسلام أثر كبير فى تجسيد هذه المبادئ، وكان له – أيضًا – أثر كبير فى تخلىّ أهل البادية عن بعض معتقداتهم، مثل الأخذ بالثأر و وأد البنات والتهوين من أمرهن، والتقليل من شأنهن، والتفاخر بالأحساب والأنساب، كذلك للتحضر وحياة المدنية والامتزاج

بالحضارات الأخرى غير العربية أعظم الأثر فى ترويج بعض هذه المبادىء الإنسانية التى روجّ لها عديّ فى معظم شعره.

وقد بدت في شعر عديّ بعض هذه القيم، وظهرت فى معظم مدائحه فى الوليد بن عبد الملك، كذلك فى فخر الشاعر، ومن هذه المبادئ العفاف والحلم وعدم الطيش وتجنب سرعة الغضب، وتقدير الأمور والتفاخر ببعض القيم، والدعوة إلى احتكام العقل والرؤية الهادئة المتزنة فى تقييم المواقف، وحسن تدبير الخطط قبل تنفيذها، وتقدير النتائج المترتبة والمتوقعة، والنظرة العامة الشمولية، بعيدة عن الفردية والذاتية أو القبلية المتعصبية.

ويتغنى عديّ - أحيانًا - فى بعض شعره بقدرته على عتاب النفس ولومها وزجرها، وهذا أمر قد لا يرتضيه شاعر البادية، وعديّ يعترف بالخطأ، ويعترف بالتقصير، وبأنه قد جنى على نفسه، وأنه أسرف فى شبابه فى ملذاته، ويعلن توبته، ويبدى ندمه، ويفاخر بمجافاة الفاحشة، وتجنب ما يشين الطهر والنقاء.

ويفتخر عديّ بعلمه، وبمعرفته بواطن الأمور، حتى أصبح لا يسأل أحدًا، ولا يعنى التحضر التجرد من القيم، والتحرر من المبادىء والتحلل من الالتزام، إنما يعنى الارتقاء بالذوق الإنسانى، والسمو بأساليب المعاملات البشرية، ويتغنى عديّ بالعفاف فى قوله:

ظاهرو الأنْس والعفـــافِ إذا ما لُزَّ بينَ البيوتِ بالأطنَابِ[1]

ويفخر بطهارة ثوبه، وبعده عن الدنس والفاحشة، فيقول: [2]

لاقَيْتُ فى غَرْبِ الشبابِ فلم يَكُنْ قلبى لها غَرَضًا ولـم استَقْتِـلِ
وأنا امرؤٌ مِنِّى العَفَافُ ولم أكُـنْ دَنِسَ الثيابِ ولا مُريبَ المَدْخَـلِ

ويرى فى ممدوحه ما يجيز مدحه حين يترك الفواحش فى قوله يمدح عمر بن الوليد بن عبد الملك[3]:

ترك الفواحش مُذْ تَرَعْرَعَ يافِعًـا ونما إلى الحَسَّبِ الرفيعِ الأفْضَلِ
مِنْ مَنْصَبِ العُرْبِ الذى ما فَوْقَهُ للناس من شَـرَفٍ ولا مُتَمَهَّـلِ
ولرُبَّ مغتبطٍ كريـمٍ قَـدْ غَـدا من عنـدِهِ بهجًا بَنَفْحَةِ مُجْـزِلِ
وغريب قـوم أسلموه لمـا بـه ومتى تراه كالخليـعِ المُهْمَـلِ
لم يلتفت أحدٌ إليـه ولـم يَجِـدْ إلا نداكَ فكنتَ خـيرَ معـوّلِ

---

(١) ديوان عدى . ص ٤٩.

(٢) ديوان عدى. ص ٦١ (غَرْبُ الشباب: حِدْتُهُ، أى لم أمكنه من نفسى ولم أتهالك عليه، دنس الثياب: أى فاجر.

(٣) ديوان عدى . ص ٧٠ ، ص ٧١.

ويلوم عدى نفسه، فيقول:

وإنى عند بأسى لُمتُ نفسى ولـــوم النفسِ لا يغنى قبالاً [1]

ويتغنى عدىّ بتواضع ممدوحيه، مع عظم شأنهم؛ فيقول:

قَـوْمٌ أغـرُّ تـرى الأعـزَّةَ عِنْـدَهُ متواضعـينَ عظيمُهُم كالأصْبَـلِ [2]

يُطرى رجالٌ فى الخلاءِ نفوسَهم وإذا رأيتهم معًا لـم تعـــدل

وإذا رأيت جماعةً هـو فيهُـــمُ بَيَّنْتَ ســـؤدَدَهُ وإنْ لم تُسـأل

ألفى أبـــاه وجّـــده وأباهمـــا مروان فى الشرف الرَّفيع الأطول

أنتَ ابنهـم بُنِيَتْ عليكَ بيوتُهمُ فى قاهـرٍ لذوى الضغـائن مُعْتَل

بالحـــقِّ قـامَ فما يُقَصِّرُ سَمْعُه عن صـــوتِ مظلـومٍ ولا مُتَذَلِّل

وهو لا يفخر بالظلم والقوة والاستعلاء على الآخريـن كمـا كـان يفعـل شـعراء الجاهليـة، بـل يفخر بالدفاع عن المظلومين، ويتغنى بالمساواة، فالجميع أمام الحق والعدل سواء وتلك من سمات الأخلاق الحضارية.

جَعَلَ الأمرَ فى ذوى الرأى منهم إنَّ خَيْرَ البَرِيّـــــة الأتقيـــاءُ

ييأسُ الظلـمُ أنْ يكـــون بأرْضٍ هُمُ بها أو يجىء مِن حَيْثُ جاءوا

سُنَّةُ الله والرســول فمـــا فى أمْرهـــم ريبَـــةٌ ولا لَحْجـــاءُ

قـــوْم المسلمين حتى استقامتْ سُنَّةُ الحَـقَّ فيهـــمُ والوفـــاءُ

والموازين بعد بَخْسٍ فجـــازَتْ سِلَعُ النـــاسِ بَيْنَهم والهـــداءُ

فإذا العبـــدُ ذو العبـــاية يُعطى حَقَّـهُ والوليـــدة البلهـــاءُ [3]

ويفخر عدىّ بالحياء، ويعترف بالجميل:

لولا الحياءُ وأنَّ رأسِىَ قد عَثَا فيـــه المشيبُ لزرتُ أمَّ القاسـمِ

وكأنها وسْطَ النســـاءِ أعـارَها عَيْنَيْهِ أحْوَرَ من جآذِرِ جاسِمِ

وَسْنَانُ أقْصَدَهُ النعـاسُ فَرَنَّقَت فى عَيْنِهِ سِنَةٌ وليسَ بنائِـمِ [4]

---

(١) ديوان عدى . ص ١١٠.

(٢) ديوان عدى . ص ٧١، ص ٧٢.

(٣) ديوان عدى . ص ١٦٠.

(٤) ديوان عدىّ . ص ١٢٥.

ويفخر عدى بعلمه..

وبقيتُ حتّى ما أسائلُ عالمًا عن علمِ واحدةٍ لكى ازدادَها[1]

ويرى أن العلم يشفى من العمى:

وعلمتُ أنّ المـــرءَ غيرُ مُخَلَّـــدٍ والعلمُ يشفى قَدْ علمتُ من العَمَى

والشيبُ يختلسُ الشبابَ تخـوّنًا حتى يعودَ المرءُ مُنْتَقِض القُـوَى

تنمى إلى أقصى الخطوبِ نفوسُنا وتعيش بالأمَـلِ المؤَمَّـلِ والمُنَى[2]

ويفخر بالحلم وعدم الغضب، ويرى أن الكفر ألا يشكر الإنسان نعم غيره عليه:

لهُ علىّ أيـــادٍ لستُ أكفُرُهـــا وإنّما الكُفْرُ ألاّ تُشْكَرَ النِّـعَمُ[3]

ويمدح عدىّ الخلفاء بمعان إسلامية، وهذا أثر من آثار التحضر، فقد أشاد الإسلام بكل المبادىء الإنسانية من عفاف وحياء وعدل وحق وإنصاف وشكر إلى آخر هذه القيم.

وتبدو هذه القيم الإسلامية فى مدائح عدىّ فى الوليد وفى عمر بن عبد العزيز فقد مدحهما بالعدل والإصلاح وخوف الله، والاهتمام بأمور الرعيـــة، وإقامة الحدود، وتطبيق شرائع الإسلام.

الحضارة الإسلامية لا تفترق عن الحضارة العربية بل هى أساسها ومصدرها وجوهرها، والحضارة فى عصر عدى القائمة على الشريعة السماوية أدت إلى الرقى الأخلاقى، ونبذ أخلاق الجاهلية، وما فيها من خشونة البداوة وأضحت تناشد المعروف والبر والتقوى وتدعو إلى العطف والعدل والرحمة، ومما لاشك فيه فإن النصوص التى استشهد بها هذا البحث فى قضية المبادئ الإنسانية والأخلاق الحضرية كان الأثر الإسلامى فيها بارزا، وطوابعه عليها واضحة، والأثر الإسلامى لا يبعد عن الأثر الحضارى.

واستكمالا لهذا الجزء من البحث وهو أثر الحضرة الإسلامية فى الجانب الأخلاقى يجدر بالبحث أن يستعرض بعض أقوال عدىّ المأثورة التى يمكن أن يطلق عليها الحكمة.

ولا يعالج البحث كل الحكمة فى ديوان عدىّ، بل يقع البصر على الحكمة المتأثرة بالتيار الحضارى وربما له أقوال كثيرة تتفق وروح البداوة إرضاءً لذواتهم أو تأثرًا بما قاله السلف.

---

(١) ديوان عدىّ . ص ٩١.

(٢) ديوان عدىّ . ص ١٦٥.

(٣) ديوان عدىّ . ص ١١٨ – أيادٍ: نِعَمٌ، يُقال: قد أيديت إليه يدًا، إذا صنعتَ معه معروفا.

والحكمة فى شعر عدى المتأثرة بالتيار الحضرى نبعت من ذات الشاعر، ولم يقلد غيره، ولم يسلك مسلك القدامى، ولم يأت فى حكمه بما يُعرف بالقوالب المصبوبة، أو الأقوال المأثورة بل صنعت صنعا فى مصنعه الخاص وعرضها بطريقته الخاصة.

والحكمة نتيجة تجربة، وثمرة معاناة، ومُحصِّلة خبرة ما، اكتسبها الشاعر من مواقفه مع الحياة، ومن سلوكياته مع البشر، وبيت الحكمة فى الشعر طالما فاق قصيدة كاملة، وقد يكتب له الخلود، ويحظى بشهره يعجز شعر الشاعر عن الإرتقاء إليها، لما فيه من معان سامية وخبرة مكثفة، ودروس صالحة، وعظات وعبر، يقتدى بها اللاحقون، ويستشهد بها المحبون للشعر العربى، وفلسفة الحياة، فيظل يتردد على الألسنة، تحفظه القلوب، وتعيه الصدور، وتحميه الأفئدة.

والحكمة فن عريق من فنون الشعر العربى، قديمه وحديثه، وعلى قدر شخصية الشاعر وظروفه، وملابسات الحياة من حوله، ومدى ما عاناه، والدور المنتظر منه أداؤه، كل هذا يتحكم فى فنية الحكمة وتراثها الفكرى.

وابن الرِّقاع يأتى بحكم متناثرة بين أبيات شعره، لم يجعل الحكمة قصيدةً أو مقطوعة بذاتها، ولم يجعل الحكمة كما جعلها غيره من الشعراء الذين سبقوه فى الجاهلية مثل زهير بن أبى سلمى أو الشعراء الذين أتوا بعده فى العصر العباسى مثل البحترى، لم يجعلها فى نهاية قصيدته أبياتا متراصة، ومعان متلاحقة، ودروسا يتبع بعضها البعض، بل أتى بها وسط المعانى، وحين يحتدم الموقف، وحين تتطلب الأزمة قولا حكيما ورأيا راشدًا سديدا.

والشاعر لم يعتمد على أقوال سابقيه، أو على معان موروثة، بل صاغها من ذاته، وبأدواته الفنية الخاصة، ويغلب على عبارات الحكمة فى شعر عدىّ التنوع والاستطراف فهى متنوعة وهى مختلفة المعانى، وهى تصلح لكل ميادين الحياة، وهى جديدة طريفة، تواءم العصر وتوافق الموقف لا تحيد عنه أو تغرب، كما أنها تتسم بالبساطة والوضوح والدِّقة فى انتقاء الألفاظ، واختيار العبارات، وكذلك الصورة.

والحكمة المتناثرة فى قصائد عدىّ، تنم عن شخصيته وتعبر عن رؤيته الخاصة إلى الحياة، وتصور طريقة تعامله مع البشر ومع الأزمات، وتتأثر حكم الشاعر بمصادره الثقافية، وروافده الفكرية، التى يستمد منها قوالب الحكمة، والحكمة تكون فطرية ساذجة، أملتها الحياة دون قصد أو عمد، وربما تكون مكتسبة جاءت إلى الشاعر من وضعه الاجتماعى، ومن مكانته وعلاقته بأولى الأمر.

وتلتحم حكمة عدى التحامًا فنيًا وفكريا بمضامين قصائده، وهو لا يقصد إلى الحكمة قصدا، ولا يرتدى ثياب الوعاظ، ولكنه يربط بين بعض مظاهر الحياة من حوله فى تبدلها وتغيرها فيصوغ الحكمة من فكره ومن رؤيته الخاصة، وبأسلوبه وصياغته، ولا يستشهد بأقوال السابقين، ولا يقتفى آثار فكرهم، ولا يلجأ إلى التذييل، أو يأتى بأبيات شعر معروفة ومحفوظة، وتعابير جاهزة.

ومن أقوال عدى فى الحكمة، والمتأثرة بالتيار الحضارى، قوله:

وكذاك يعلو الدهرُ كلَّ محلةٍ ... حتى تصيرَ كأنّها لم تَنْزِل
لا يومَ إلا سوفَ يُورثُهُ محلةٍ ... حتى تصيرَ كأنها لم تَنْزِلَ
قد كانَ أهلُكَ مرَّةً لك زينةٌ ... فاستُبْدِلوا بَدْلاً ولم تَسْتَبْدِلى[1]

ويفسر أبو العباس ثعلب جامع شعر عدىّ قوله السابق بأنه «يريد ذاك اليوم بعينه، لا يأتى إلا فى العام المقبل فى يومه وفى شهره».

ويقول عدى فى بعض حكمه أن انتظار الإنسان لأمل يحلم به، ويتمنى وقوعه، قد يكون فى تحقيقه هلاكًا له:

وكم تَرَى من قوًى فكَّ قوَّتَهُ ... طولُ الزمانِ وسَيْفًا صارمًا نَجَلا
إنّ ابنَ آدم يرجو ما وراءَ غدٍ ... ودون ذلك غولٌ تعتقى الأملا
ولو كانَ يُعْتَقُ حَيًا عن منيَّتِهِ ... تحرُّزٌ وحِذارٌ أحْرزَ الوَعَلا[2]

ويستغل الشاعر خبرته بالحياة فى مدح عمر بن الوليد بن عبد الملك فيصوغ أقوالاً تجرى مجرى الحكمة ومنها[3]:

والأرضُ مِنْ أعلامِها متواضعٌ ... وأعزُّ عَمَّمَ رأسَهُ بعَماء
والناس ليسوا يستوون فمنهم ... وَرَعٌ وآخرُ ذو نَدىً وغناءِ
والناسُ أشباهٌ وبينَ حلومِهم ... بَوْنٌ كذاك تَفاضُلُ الأشياءِ
كالبرق منه وابلٌ متتابعٌ ... جَوْنٌ وآخرَ ما ينوءُ بماءِ
والدهرُ يَفْرقُ بينَ كلِّ جماعةٍ ... ويلفُّ بعدَ تباعُد وتنآءِ
والمرءُ يُورثُ مَجْدَهُ أبناءَهُ ... ويموتُ آخَرُ وهو فى الأحياءِ

---

(١) ديوان عدى . ص٦٩ (يريد: لايرحل ذاك اليوم بعينه إلا فى العام المقبل فى يومه وشهره)
(٢) ديوان عدى . ص٧٤ (كلّ شئ اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول، رجل غَوْق: أى: تحبسه الأمور عن حاجته)
(٣) ديوان عدى . ص١٦٣ (الوَرَعُ : الجبان والضعيف)

ويربط بين الحكمة ومظاهر الطبيعة والبيئة المطرة المزهرة أحيانا، كالبرق والوابل والماء والغيث وغيرها، وينظر الشاعر حوله، فيجد من ينفق ماله فى اللذات، فيصير فقيرا، ومنهم من يعمل ويكافح فيصير غنيا:

كَمْ مِنْ فَتى قَدْ رَأَيْنا لا سَوامَ لَهُ ثمَّ اقْتَنَى بعدَ ذاكَ المالَ واحْتَبَرا
ومُكْثِرٍ كانَ ذا مـــال فأذْهَبَهُ تفريقُ ما يُذْهِبُ الأموالَ فافْتَقَرا[1]

حكى محمد بن سلام الجمحى عن يونس بن حبيب الضَّبىّ[2] قال:

سألت أعرابيا فقلت: أفقيرٌ أنت؟ فقال: لا والله بل مسكينٌ، والفقير: الذى له بلغه من العيش، والمسكين: الذى لا شىء له.

ومن الطبيعى أن يتأثر الشاعر عدى بن الرِّقاع العاملى بالقرآن، وبفلسفة الإسلام، فيصوغ بعض حكمه المتأثرة بالحضارة الإسلامية، ويرى الحياة حوله أجيالاً تذهب ويأتى غيرها، وكذلك الأرض التى ينزع نباتها، بعد أن كانت تزهو به، وينصح الإنسان ألا يغتر بالنعيم، حتى لايأسف عليه بعد ضياعه، ويبدو تأثر حكمة عدى الحضارية بالقرآن فى مثل قوله:

هل النـــاسُ إلا قـــرون فقرنٌ يبيدُ وآخرُ مستخلفُ
فيعمِر فى الأرض ثم الفنـاءُ آتٍ عليه فمُستـــتنطِفُ
كأرض تَنْزَعُ ما أنْبَتَـــتْ وكانَ لها مَرَّةً زَخْـــرَفُ
فلم أرَ مِثْـــلَ امرىءٍ غَـــرَّهُ نَعِيمٌ ولا كامرىءٍ يأسَـــفُ
فأىّ عجائب هذا الزمـــان تُنْكِرُ أو أيُّها تَعْـــرِفُ
كم اسْتَرَطَ الدهرُ من أمـــةٍ كأنَّ البلادَ بهم تُخْسَـــفُ
وجيـــل سَمِعْنا بهم قد فَنَوْا فما الحىُّ إلاّ كَمَنْ يُثْـــقَفُ
ومَنْ يَتَمَطَّ بِهِ عُمْـــرُهُ يَصِرْ وهو الخَلَـــفُ الأخْلَفُ
ومَنْ كانَ يُخْلَفُ مِيعـــادَهُ فإنَّ المَنِيَةَ لا تُخْـــلِفُ
وما لامرىء أرَبٌّ بالحيـــاةِ عنها مَحِيصٌ ولا مَصْرِفُ[3]

وتزخر أبيات الحكمة فى شعر عـدىّ بآثار التحضر الإسلامى، وكثير من معانى أبيات الحكمة السابقة يعود فى أصوله إلى روافد إسلامية، ويتفق مع ما جاء فى آى القرآن الكريم (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ).

---

(١) ديوان عدى. ص ١٨٧
(٢) معجم الأدباء : ٦٤/٢٠ دار المعارف ٥٤١، الزاهر ٢٢٥/١
(٣) ديوان عدى . ص٢١٢ ، ص ٢١٣

وقد أشار عدى فى بعض حكمه إلى العلم وإلى الفكر، وإلى اختلاف درجات البشر فى تفكيرهم وعقولهم مع تشابه أشكالهم فى بعض الأحيان، كما ذكر النعيم والترف و الاستمتاع بالحياة وعدم الاغترار بها، حتى لا يندم الإنسان على ضياع فرصته، كما بدا تشبعه بروح الإسلام وتعاليمه فى تقبله لأمور الله سبحانه وتعالى، حتى كانت حكمته متأثرة بحضارة الإسلام، ومواقع الحياة من حوله، وبطبيعة الأشياء، وبفكره الخاص، ولم تكن حكم عدىّ قوالب مصبوبة مُعدّة من قبل، ولكنه شكلها متأثرا بفكره المتحضر العربى والإسلامى، فجاءت مواكبة لظروف الحياة المتحضرة من حوله.

* * *

(هـ) شخصية الشّاعر الحضاريّ
عَدِيّ بنُ الرّقاع العَامِلِيّ
على ضَوء شِعْرِه

الحديث عن سيرة الشاعر فى بداية البحث، والحديث عن الجانب الإنسانى والمبادئ الأخلاقية فى شعره، يختلفان تمام الاختلاف عن تناول شخصية الشاعر على ضوء شعره، والشاعر ركن من أركان مقومات الحضارة الأربعة مع الحكام والمفهوم والبيئة، والشعر الذى أفرزه متناولا بعض المبادئ الإنسانية والجوانب الأخلاقية كمفهوم من مفاهيم الحضارة، لا ينفى رغبة البحث فى تحليل شخصية الشاعر على ضوء شعره، وذلك الاتجاه لا يعد جديدًا ولا ندّعى أننا أصحاب هذا المذهب ورواد هذا الاتجاه، بل نحن من المؤمنين به، والمقتنعين بجدواه وهو رؤية الشاعر من شعره وقد نادى بهذا الاتجاه وروّج له نقاد عرب قدماء ومعاصرون ونقاد مستشرقون وكتاب عرب ومصريون محدثون ينادون جميعا بفهم الشاعر من خلال شعره، فالشعر حديث الشاعر، والحديث مفتاح الشخصية، والتعرف على قسمات الشخصية، وسماتها الإنسانية يبدو من خلال الأقوال، والأقوال رؤية فكرية لمفكر فى قضايا عصره وقضايا مجتمعه، أقوال آمن بها، وآراء اقتنع بها، ورؤى نادى من أجل تحقيقها، ومذهب سلك طريقه، ومنهج ارتاده، ونادى غيره بأن يرتادوه، ولاندعى كذب شاعر أو زيف ما يقوله، فليس أمامنا إلا أن نؤمن بما قاله وأن نقتنع برأيه حتى ولو كان ادعاءً، والصدق الفنى ليس معناه مطابقة القول الأدبى لواقع الحقيقة بل هو صدق الشاعر فى تعبيره حتى وإن ادّعى حبًا مع غياب المحبوبة ولكنه أقنع الذات، وعاش فى مجال الوهم، وامتزجت روحه بخيال محبّب غير ممقوت، وقد تعارض أخباره أو ماعرف عنه، أو ما شهد به معاصروه مع ما يدّعيه فى شعره أو مع ما يرويه من أخباره، وهذا ليس بقاعدة فقد يخرج عن الحقيقة برهة بسيطة ولكن الخيط الواضح أو الاتجاه السليم المسيطر على شخصيته يبدو واضحا جليا فى شعره ولا يخفى على عين القارئ الواعى.

ونود أن نتعرف على قسمات شخصية عدى النفسية من خلال شعره، ولما كان البحث يهتم بالأثر الحضارى فى شعر الشاعر، فإن تحليل جوانب شخصيته من خلال الشعر الحضارى تؤكد تحضره، وتثبت حضارته وحبه للمدنية وتأثره بها وتغنيه بمظاهرها فى شعره، وليس معنى هذا القول أن البحث إذا دار حول الاتجاه البدوى فى شعر عدىّ بن الرِّقاع فإنه يؤكد بداوته، وينفى تحضره، وليس معنى هذا أننا نتعصب للاتجاه الذى يسير فيه البحث وننفى بداوة الشاعر ونؤكد حضارته بيد أن التعامل مع شعره الحضارى لا تنفى أن الباحث قرأ شعره كله وهذا أمر لايغفل، وفهم ما فى بداوته كما فهم ما فى حضارته، ويمكن أن نؤكد أنه شاعر متحضر، عاش فى المدينة، وكانت حياته بدمشق، وتأثر بها، وتغنى بطبيعة الشام، التى تختلف عن طبيعة البادية، وأن ما نراه فى شعره من مظاهر البداوة ليس زيفا أو كذبا أو ادعاء بل هى جانب فنى من جوانب شعره، لا غنى عنها، وقد عبر عنه تعبيرا صادقا.صحيحا ومن المحتمل أن تكون البداوة فى شعره اتجاها فنيا وليست طريقة حياة، فالشاعر يصف رحلاته وانتقالاته وربما تكون الرحلة فى شعره رمزًا، وربما قد فهم أن الطريق إلى الممدوح وخاصة الخلفاء طريق طويل وعسير وشاق، وأن الوصول إليهم يحتاج إلى عناء وأسفار، ويتوسل الشاعر بأداة الانتقال فيصف المطية فى حالات، ويصف الخيل فى حالات أخرى ويجعل من الحيوان وسيلة انتقال وأداة تخلّص وطريق خروج وجسرًا فنيا يعبر من خلاله من مطالع قصائده إلى موضوعاته ومدائحه، فالمدنية والتحضر من سماته الشخصية، وفى الحقيقة البداوة اتجاه فنى قلد فيه غيره من الشعراء، وتأثر بهم وبألفاظهم وموضوعاتهم فى البداوة والصحراء، ولذا يمكن القول أن أولى سمات الشاعر عدى بن الرِّقاع العاملى من خلال شعره وتحليل شخصيته النفسية أنه شاعر متحضر عشق المدنية وأحب المدينة، وتغنى بها، وقد نعفى أنفسنا من الاستشهاد بشعره الذى يؤكد تحضره فإن تناول جوانب الحضارة فى شعره من حيث المضامين السابقة جميعها تؤكد هذا الملمح وتثبته.

وتتوالى سمات عدى النفسية، تؤكدها أشعاره، وتؤكدها الأخبار التى رويت عنه، والحكايات التى لازمت قصائده، كما تؤكدها ما عرف عن عصره وعن أقطاب عصره من رجالات وأحداث سياسية هامة ومنها أنه رجل سياسة، صاحب اتجاه سياسى معروف ومنهج محدد واضح، وأنه ليس من أنصار العقائد، أو التحزُّب العقيدى، ومع كثرة شعره الذى روى عنه لم يعرف له شعر فى التشيع، أو شعر يناصر حزبا عقائديا أو فرقة إسلامية، بل كان من شعراء السياسة فى عصره، وقد يُحسب عليهم، مع أن مفهوم السياسة عند الشعراء المتعصبين للحاكم وأسرته لا تخرج عن مدائح ينظمها الشاعر مشيدا بأمجاد الحاكم وإنجازات الخليفة، وأفضاله على الرعية، كما تشيد بأنسابه التى يشرف بها، ويدافع الشاعر عن الحاكم فى ولاء منقطع النظير، ويدفع عنه الأعداء، ويدحض حجج الخصوم، وما الأعداء إلا الخارجون

والمارقون، والراغبون فى الوصول إلى عرش الخلافة، إنها سياسة من لون خاص، سياسة الشعراء، يضطر الشاعر إلى الخضوع لقوانين الشعر وقواعده، فلا تفسير موضح، ولا تفصيل ممل إنه موقف يؤيد فيه الحاكم، ويعارض فيه الأعداء، والخط السياسى من أوضح الخطوط فى شعر عدى، وقد يدخل معه صفة للشاعر وهو حسن مخاطبة الملوك والخلفاء، والعزف على الوتر الذى يحب الخليفة أن يسمع أنغامه، وقدرة الشاعر على أن يجعل قلب الخليفة يميل إليه، فيقتنع به، ويقربه منه، وقد يظن البعض أن هذه السمة من سمات الشاعر النفسية أمر مشترك عند جميع الشعراء الذين عرفوا بالمدائح، وأنها صفة تدخل فى إطار المديح، بيد أن عدِيًّا لم يظهر فى قوله أنه مداح رغما من سيطرة هذا اللون على جميع قصائده، وذلك لعدة مبررات منها: أنه لم يقصر قصيدة واحدة على فن المدح بذاته، بل كان بناء القصيدة الفكرى عنده يسير وفق نمط معين لم يخرج الشاعر عنه، فى الغزل والطبيعة والحكمة ومدح الخليفة، كما أنه لم يظهر رغبة فى العطاء أو النوال، ولم يلح على هذا الأمر، بل لم يصرح به على الإطلاق، فهو شاعر ذو كرامة، وصاحب كبرياء، لم يخفض رأسه، ولم يجعل قامته أقصر من قامة غيره، بل جعل من نفسه صديقا وملازما وناصحا واشترك فى معظم اللوحات التى رسمها لمدوحيه، ويضاف إلى هذا - أيضًا - أنه لم يمدح غير خلفاء بنى أمية، أو المروانيين على وجه أخص، أو الوليد بن عبد الملك أولاً، ثم ولده عمر بن الوليد بن عبد الملك، والخليفة عمر بن عبدالعزيز، وإن كان الشاعر يريد مالاً لنظم مدائحه فى أولى الأمر وهم يملكون القدرة على المنح والعطاء، إنه شاعر حضرى لا يفرط فى كرامته، ولايتذلل فى قوله، ولم يشعر بأن ذات الشاعر أقل من ذات الخليفة، كما أن الخليفة قربه وصادقه، فالمنفعة مشتركة ومتبادلة، والخليفة لايستغنى عن أشعار الشاعر، التى تشيد به وبأسرته، والتى تسجل تاريخه وأمجاده، والتى تبقى المدائح طيلة الزمان وقد يفنى مقابلها مهما كانت قيمته من مال أو ضياع، فالحاكم لا يعرف الفاحشة، وينتمى إلى أرفع الأصول، ولا يعلو قدره قدر آخر، وإذا بدا فى جمع عرفته دون أن تسأل عنه، ولذا فمقاليد الحكم فى يد نزيهة أمينة شريفة، حق للرعية أن تدين لها، وتؤمن بسياستها.

ترك الفواحش مُذْ تَرَعْرَعَ يافعًا ... ونما إلى الحَسَبِ الرفيعِ الأفْضَلِ
مِنْ مَنْصَبِ العُرْبِ الذى ما فَوْقَهُ ... للناس من شَرَفٍ ولَا مُتَمَهَّلَ
وإذا رأيت جماعةً هو فيهُمُ ... بَيَّنْتَ سَوْدَدَهُ وإنْ لم تُسألَ
ألفى أباه وجّده وأباهما ... مروانُ فى الشَّرفِ الرفيعِ الأطولَ
نطفاء كانوا للبرِّية عصمةً ... فأطاقَ آخرهم فِعَالَ الأوّلَ
بالحقِّ قامَ فما يُقصر سَمْعُهُ ... عن صوتِ مظلومٍ ولامُتَذَلِّلِ[1]

---

(١) ديوان عدى. ص ٧٠.

ويظل عدى فى وصفه للوليد بن عبد الملك، ويمكن أن تجمع هذه الصفات لتكون إجابة عن تساؤل يدور حول سمات خليفة العرب، وما الشروط الواجب توافرها فيمن يلى أمر المسلمين؟

ولا يعد الحديث عن سمات شخصية عدى من نافلة القول، أو تكرارًا لما سبق، فإن البحث عن قسمات الشاعر النفسية من خلال أشعاره منهج يجب الدعوة إليه، وأن الحديث هنا يدور حول سمات تجعل منه شاعر المدنية والحضارة، ويمكن أن يضاف إلى الصفتين السابقتين وهما أنه شاعر الحضارة، وأنه شاعر السياسة، أنه شاعر الرحلة والانتقال.

والرحلة والانتقال لا تعنى بداوة الشاعر، بل تعنى - أيضا - تحضر الشاعر، فقد ينتقل من مدينة إلى مدينة، وقد ينتقل من المدينة إلى البادية، ويعود بعدها إلى مدينته، وأشعار الشاعر سمة من سماته النفسية، وصفة لا يتمتع بها إلا من أوتى القدرة على حب الطبيعة، وأن يجعلها خاضعة له، ويحيا فى ربيع متواصل، ويفيد أشعاره تجاربا وخبرة ومعرفة وحبا للناس، ويظل ينشر أشعاره فى كل صوب وحدب.

وشعر الرحلة والانتقال من الموضوعات التى يجب أن تُفرد لها دراسة منفصلة، وبحث قائم بذاته، يبحث فيه صاحبه عن الرحلة ونوازعها، والانتقال ودوافعه، وعن أنماط الرحلة ومظاهرها، وعن نفسية الشاعر المرتحل، وعن أداته فى الانتقال، وعن الموضوعات التى يتناولها شعر الرحلة وأبرزها وصف الطبيعة، ومجال البيئة، وصورة الحيوان والتغزل بالمحبوبة، وفلسفة الحياة، واتساع الرؤية وشموليتها، ثم يرصد فى خاتمة الدراسة أبرز السمات الفنية التى يتسم بها شعر الرحلة والانتقال فى الألفاظ والتراكيب، وفى الصور والأخيلة.

وقد تكون الرحلة فى كثير من القصائد رمزا، وقد يكون الانتقال والارتحال وهمًا، وقد يعنى الرمز الكثير من المعانى، وقد يضفى الوهم ألوانا من الجمال، وصنوفًا من الخيال المحبّب، قد تكون الرحلة انتقالا للشاعر ولذاته من مكبوتات الماضى إلى آفاق الحاضر وتطلعات المستقبل الرحيب، وقد تعنى انقطاع صلة، وانفصام عرى رابطة حب، وهجر حبيبة طالما تعلق قلب العاشق بها، وأضحت فى منأى عن الحبيب، فى كنف آخر، لايستطيع من قلعتها اقترابا فقد أوصدت الأبواب، وشدت المتاريس، فقد بانت سعاد، كما بان غير سعاد، وقد أضحت بأرض لا يستطيع أحد أن يصل إليها، وقد تكون الرحلة للحبيبة مع بقاء الحبيب ولكنه يشعر بالغربة، فالأنس والأمان فى اقتراب الحبيبة والهجر والارتحال فى بعاد أحدهما.

وقد تكون الرحلة تقليدا فنيا، يسلكه الشاعر، ينتقل عبره من مطلع قصيدته إلى موضوعه الأساسى، ويختار لرحلته وسيلة انتقال قوية وصبورة وحمولة تستطيع أن تؤدى رسالتها، وكما أن غزل معظم الشعراء فى مطالع قصائدهم تقليد فنى ينهجه الشاعر، يحافظ على أصول

الصنعة لمدارس فنية، ينتمى إليها، كذلك انتقال معظم الشعراء، وتصويرهم رحلات عبر البادية هو الآخر غير حقيقى بل تقليد فنى يسلكه الشاعر الفنان، حين يجعل الأخطار كثيرة، والمخاوف تملأ المكان، والمسافة طويلة، والمشاق لا حصر لها، والمتاعب يحتملها من أجل حلاوة الوصول وجمال لقاء الممدوح الذى أتعب ناقته من أجله.

والرحلة فى شعر عدى تصور سمة من سماته، ويوظفها فى غالب الأحيان فى الانتقال من الشباب إلى الشيب، والانتقال من لذات الهوى من ماضى الأيام إلى رزانة وتعقل الكبر.

فَـذَرِ اللَّهـوَ لِمَنْ يَلهُو بـه ... واكسُ أقْتادَكَ جَوْنًا ذاهِبـابِ
حَمَلَتْـهُ بـازلٌ كودانَـةٌ ... فى مِـلاطٍ وَوعـاءٍ كالجرابِ[1]

وحين يترك اللهو مختارًا غير مجبر، وينقل حياته من الطيش إلى الوقار، يذكر الرحلة فى موضع آخر وسيلة للنسيان، فقد أتعبته الذكرى، وقد أرهقه القيام فى مقام الأحبة الذين هجروه، يضطر الشاعر إلى ركوب ناقته القوية، التى تحتمل شدة الرحلة وقسوتها وطولها، حتى ينسى ولا يتذكر كلما رأى مكانا كان يجمعه وحبيبه يوما ما، وكان له فيه ذكرى، يود ألا يذكرها فتقوم الرحلة بأداء هذا الدور.

أفـلا تَنَاسـاها وتَترُكُ ذِكْرهَـا ... إذْ حمَلَتْكَ أخـال ما لَـمْ تَحْمِـلِ
بعُذافِـرٍ يُشـرىالجـديلَ كأنَّـهُ ... عَيعـرٌ تَصَيَّفَ فـى نحـائِصَ ذُبَّـلِ[2]

والرحلة فى حياة عدى الشاعر علاج نفسى، ودواء لداء، وخروج من مأزق، وحل طبيعى لأزمة، ووسيلة انتقال من حال إلى حال، من يأس إلى أمل، من قفر إلى خصب، من طيش إلى وقار، من ذكرى تحطمه إلى نسيان يسعده، من ذاته وما حولها إلى آفاق رحيبة، إنها فى النهاية فى معظم الأحوال إلى من أحب، وتعلق فكره به، إلى الخليفة الممدوح الذى يستحق كل ثناء ومدح، ويستحق كل عناء من أجل الوصول إليه.

الشاعر يهرب من الهم، متخذا قراره بالرحيل، وامتطاء ظهر ناقته القوية التى تقطع البيداء المهلكة فى طريقها إلى الأمل الفار إليه والذى ينشده.

فَصَرَّم الهـمَّ إذْ وَلى بناجيـةٍ ... عيرانةٍ لا تَشـكّى الأصْرَ والعَمَـلا[3]

---

(١) ديوان عدى ص٤٣ (القُتود والأقتادُ: عيدانُ الرحل . هِبابٌ : نشاطٌ . جَمَلٌ بازل: قد أتى عليه تسع سنين. الكودانَةُ . الغليظة والشديدة الملاط : الجنب . الوعاءُ : يريد رحمها.

(٢) ديوان عدى – ص٦١ (العُذافرُ: القوى الشديد من الجمال، بشرى الجديل: أى يهيج اضطراب النعام إذا هَزَّ عُنقَهُ ورأسه.

(٣) ديوان عدى – ص ٧٦ (صرم الهم، أى قطع . عيرانة : ناقة مشبهة بعير الوحش. الأصر: الحبس الضيق وقلة العلف والمرعى

وحين يغيب الحب عنه، ويفتقر إلى دلال الغانيات، ويلوم نفسه التى قبلت الهوان فى عذاب المحبين، يقطع الصحراء ويرحل، ويركب الناقة مع صحبه فى رحلة طويلة قاسية، يتحملها من أجل الهروب من ألم الواقع، وطمعا فى جمال مُقبل الأيام.

وإنَّ الحُبَّ بَعْدَكَ غابَ عنّى ... فلستُ أرى لغانيَةٍ دَلالا
وإنّى عندَ يأسى لستُ نَفْسِي ... ولومُ النفسِ لا يُغنى قِبالا
وداويةٍ يحارُ الركْبُ فيها ... كأنَّ على مَخَارِمِها جَلالا
قطعتُ بفِتْيةٍ ومخَزَّماتٍ ... يُناطِحْنَ المواركَ والجِلالا[1]

والحديث عن هذه السمة، من سمات شخصية عدى، وهى حب التنقل والأسفار والارتحال، لايفيه هذه السطور، بل هى جزئية أحوج ما تكون إلى تفصيل أعمق، ومعالجة أدق، لاتتناسب مع وضعها فى هذا المكان من البحث وهو تحليل شخصية الشاعر فى ضوء شعره.

* * *

وتتوالى السمات النفسية، والصفات الفارقة، التى تحدد ملامح عدى الإنسان، بعد هذه الصفات الثلاثة السابقة وهى التحضر والسياسة والأسفار ومنها:

- حبه للعلم والثقافة وقراءة التاريخ وفهم التراث.
- التدين السليم الذى لا يعرف تعصبا أو تحزبا أو ميلا وهوى.
- الصراحة والوضوح والصفاء والنقاء والذكاء والرجولة.
- الحلم والرزانة والتعقل والوقار، والكرامة والكبرياء.
- يحب مهنته، ويعشق حرفته، ويفخر بقدرته، فى نظم الشعر واهتمامه به.
- الإحساس بنبض العروبة القوى، والتغنى بشعار القومية الصادق.

ويتبقى بعد هذا أمران هما :

- التغنى بجمال الطبيعة وعزف أحلى الأنغام على أوتارها المشدودة فى رقة حالم وجمال متواصل.

---

(١) ديوان عدى – ص١١٠ (لا يغنى قبالا، أى: لا يغنى شيئًا، القبال: الشسع، الداوية: الفلاة. مخزمات: مبريات.

– الإعجاب بجمال المرأة وذكائها وقدرتها على أن تستحوذ قلب العاشق وعقله، وعدم السخط عليها أو التقليل من شأنها أو الحط من كرامتها أو التعبير عنها فى ألفاظ خسيسة ومعان لاتليق بل هى محبوبته التى عشقها والتى عذبت قلبه والتى شغلها هواه وهى الجميلة العفيفة التى عاش من أجلها فى شبابها، ولا يزال يذكرها فى شيبه وطيلة حياته.

* * *

وإذا حاول البحث أن يعالج هذه السمات الأخيرة تفصيلا فإن الحديث يطول وربما يكون فى معالجة هذه السمات عند تناول مضامين شعر الحضارة فى شعر عدى ما يعطى هذه السمات حقها من الإشارة والتفصيل والاستشهاد من شعر عدى بن الرِّقاع العاملى.